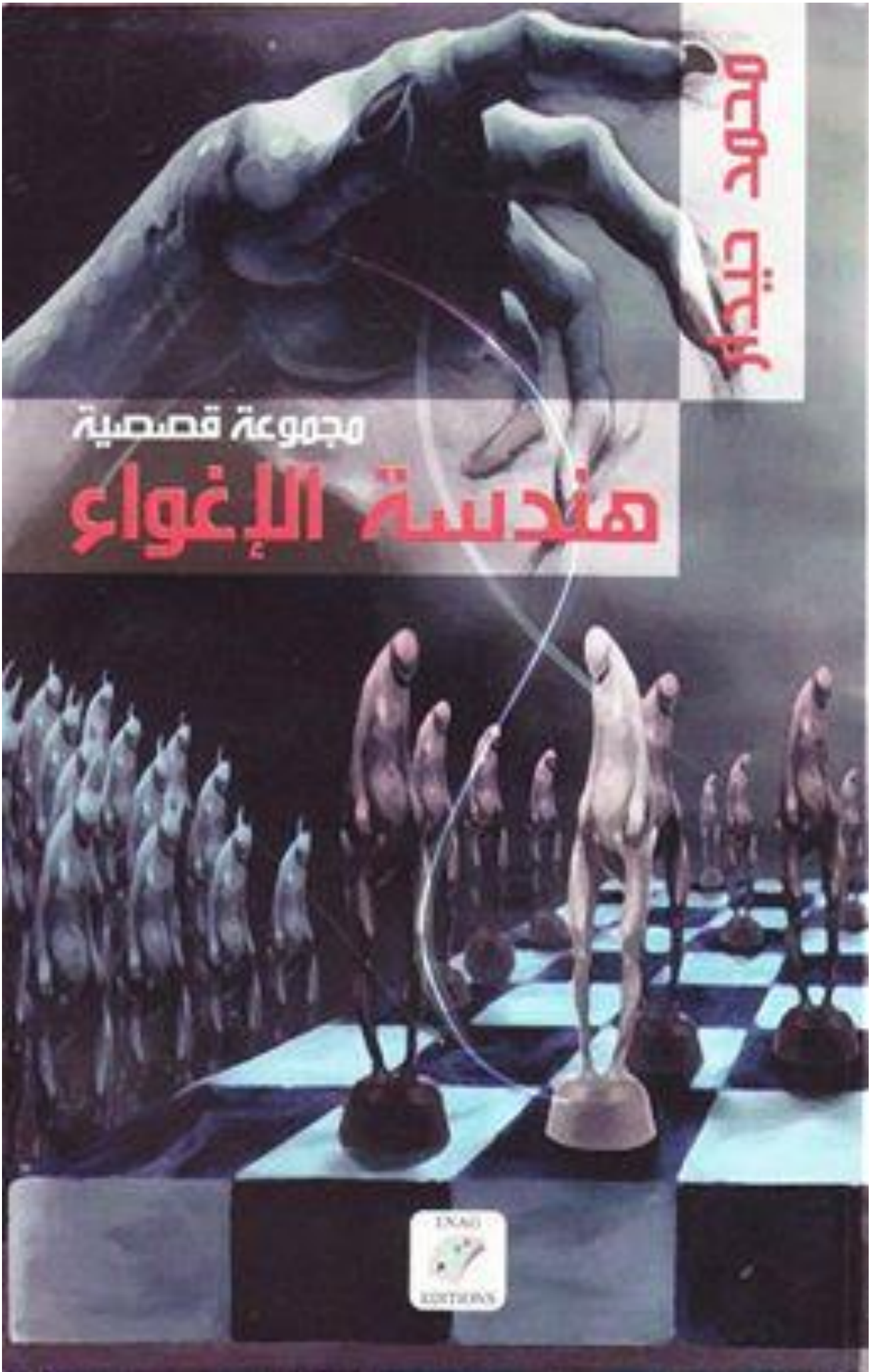
صحصاح
مجموعة قصصية
هندسة الإغواء

محمد حيدار

هـــــنـــــــد سة الإغـــــــــــــواء

مجموعـــــة قصصيـــة

هذه المجموعة القصصية:

"هندسة الإغواء"، هو عنوان المجموعة القصصية الثانية للكاتب، و هو عنوان ربما أوحى لغير الراسخين في تفريعات علم اقليدس، أن الأمر يتعلق بحقل مستحدث قد أضيف إلى حقول الهندسة، بل و ربما عجب أنصار العلوم البحتة لإقحام مصطلح الهندسة ضمن عالم الأدب الذي هو غير عالم الأرقام، فالهندسة في نظرهم – وهم محقون -لا يتسع صدرها لنوازع الإغواء، كما أن هذا الإغواء لا متسع فيه لها.

لكن في عالم الإبداع الأدبي قد يحدث هذا وذاك، فهو ـ لطرافته ـ قد يحمّل المفاهيم من الأوجه ما لم تكن قد عُرفت به في مظانها الأصلية، ولذلك لا ننصح أتباع اقليدس، بالبحث عن أية ملامح لتحكم هندسي في خرائط هذه القصص، فضلا عن شحن هذه الخرائط بحمولات من الأغواء المفترض. لأن كلا الأمرين لا يضطلع عنوان هذه المجموعة القصصية، بادعاء الترميز إليه ضمن المستويات الدلالية المنظورة على الأقل.

إنه من ناحية أخرى ـ وفوق ذلك ـ لابد من تنبيه القارئ الكريم إلى أنها ليست حكايات ـ حتى ولو كان الحكي جوهر كل عمل سردي ـ فهناك فرق قد يكون اصطلاحيا في نظرنا على الأقل بين الحكاية والقصة، وهذا استنتاج شخصي قد لايلزم أحدا غيرنا، ولو غالى "المتعالمون" ـ إن استعرنا المصطلح من **موليير**ـ، باسم الضبط الأكاديمي، وسلطة المرجعيات النقديــة، أو قل اتفاقيات القصة أو تشريعاتها كما أصبحت تسمى الأن لدى الدارسين الأكثر حداثة.

فالحكي من القص في مفهومنا، قريب من ثنائية الطبع والصنعة في الشعر ولو بوجه أخر، يجعل الحكي طبعا والقص صنعة، أي أن ما تخضع له الحكاية من جماليات وتقنيات، إن على مستوى اللغة أو على

مستوى إعادة تشكيل الحدث والشخصية، أوالتعاطي مع مختلف تمظهرات الزمن، فضلا عن هندسة المعنى، هو ما ينتقل بها ـ أي بالحكاية ـ من مجرد هيكل ومادة خام إلى تحفة فنية، إلى قصة.

بل إن الحكي من القص هو بمثابة الزهد من التصوف، ـ إذا سمحنا لأنفسنا بهذه المقارنة المنهجية ـ إذ بقدر ما يتميز الأول ، أي الزهد بالبساطة والتلقائية الذاتية دونما الأخذ بمرجعيات أي من المنظوما ت العرفانية المقعّدة ـ بالعين المضعفة ـ ، والمُلزمة يقوم الثاني أي التصوف على مفاهيم مركّبة، وزخم معرفي و بعد فلسفي، بل وتعقيد وإيحاء حتى في لغة النص التي تفتح بدورها ـ نتيجة لذلك ـ سلسلة من المستويات الدلالية، قد تكون تراتبية تجعل فهوم النص تتجاوز فهوم منتجه، فتتعدد بتعدد الدارسين والقراء المحترفين، بينما الأمر في الزهد لا يعرف كل هذا الاختلاف، وهذا الانضباط الفكري، وهذه الإضافات الممنهجة ، إلا من باب الاجتهاد الذاتي على مستوى الفعل وليس التنظير.

ومن هنا، وفي حين تكتفي الحكاية بما نعرفه عنها عادة من مغامرات وتشويق ومفاجآت، وإعلاء مبالغ فيه لشأن البطل، تستعيض القـــــصة الحديثة على الخصوص ـ عن ذلك بالشحن الفكري والتكثيف اللـــــغوي والاكتفاء بالترميز والإبراق، وكل تقانات السرد القصصي، فتتفتق الأبعاد وتتقاطع الأزمنة، وتفتتح الأجواء، وذلك مع مراعاة رابط ما يوصلها بشكل أو بأخر بمحور القصة لضمان وحدتها.

وعكس ما هو عليه الحال في الحكاية، حيث الأمور أكثر وضوحا، يكتفي هذا الرابط في القصة ـ شأنه شأن عنوانها ـ بتمظهرات ملمحية افتراضية غير قطعية وغير مرئية، وإلا افتقد نكهة الإغراء.

ومن هنا أيضا، لم يخطئ من تنبهوا إلى ذلك الالتحام العفوي الذي حدث بين القصة والقصيدة الحديثتين، سواء من حيث ابتكارات أساليب معالجة الحامل المضموني، أوالإحالة اللفظية، واعتقد أن هذا الالتحام

لاتحققه الحكاية في مفهومها القديم، سواء مع القصيدة الحديثة أو القديمة عكس القصة التي تحررت من الوظائف الغرائبية ـ في مفهومها التقليدي ـ والمفاجأة والخرافية، وتصاعد النبض وو.إلخ.

وهذا لايمنع طبعا من اشتراك الصنفين، الحكاية والقصة في أساسيات السرد، ومنها بالطبع وظائف الشخوص، وتوفر الأمكنة التي أفلح النقد الحديث في تصنيفها وتحديد طبيعة كل منها، كما أنه لاغنى لهما عن أزمنة يحددها السياق غالبا.

وإذن فأنت بين أمرين، إما أن تحكي وفق وظائف **فلاديمير بروب**

الصارمة، وإما أن تقص بحرية يكفلها لك التجريب، ففي الوقت الذي تنغلق فيه الحكاية على سيرورتها، محددة مسبقا معالم رحلتها، تنفتح القصة انفتاحا يجعلها أوسع من هذه الرحلة، وأكثر تقبلا لكل راكب ولكل قول، شريطة أن يضع لهما الكاتب من الوسائط الظاهرة أو الخفية ما يمكنهما من الانتساب إلى عالمها، إلى روحها، حتى لا تتحول إلى نوع من الكشكول.

وتأسيسا على ما سبق، ليس من الضرورة أن ينتظر القارئ الكريم من هذه المجموعة التي بين يديه، حكايات تنتهي باستكمال ما ابتدأت به، ولو أن بعضها ـ بحكم تباين أزمنة كتابتها ـ لايجافي كثيرا هذه التقنية.

الـــكـاتـــــــب

المثول بين يدي النعمان السابع عشر.

ما قبل الصمت:

حين حيتك أميرة المدائن اقتنصت بأفق عينيك إشارة اغتراب غير مدبلج بسمتك تبدو متكلفة. وكعلم منكس كان أحد شاربيك معقوصا إلى أسفل.

نظراتك هروبية لا تعكس لفحا مقدسا خالص الوميض.

الزمن دخل طور التركيب في نظرك. جاوز إنسابية تغريك كنفس يرفض سبق الإصرار في رسم آلاتي. و آلاتي زئبقي يأبى الثبات.

ليلا تزور الأميرة سجنك المعتقدي خلسة، فور أن ينام عميد كهنة النار ويلغي قائد الفيلة بقايا الطواريء.

وئيدة خطاك هذه المرة. ومن جانب واحد إعتزمت عدم الإلتفات كما توقعت سيدة المدائن.

لكم حز في وجدانها أن يتعاطى مغترب مثلك، ملحق بديوان الأبراق المبكر، أمامية السير على مرأى منها. محياك يرسم مركز جذب يأسر حواسها. مزمن صوتك يثقل حيرتها. ومن وراء القضبان لاحقك صوتها ناعما تمخره غنة:

ـ لقيـــط (1)

بإشارة منك رحبت بكلمتها دون أن تمارس حقك في الكلام

ـ بلغني أنك تركب الكتابة ليلا؟!

ومنك دنـت لتفاجئك بالسؤال:

ـ أهو نشيد آخر لاستنفار قومك بني إياد؟!

ونفيا هززت سبابتك وتمتمت في سرك

((وهل بقيت من بين قبائلنا من تحسن النفير يا مولاتي ؟!))

أيقنت أنك تحادث نفسك في صمت كدأبك.

بك الأمس يعرج والأمس أفلس تحت حوافر خيل الأساورة

الصمت منك يصيغ تمثالا عديم القدسية، بأثر رجعي نظراتها المثقلة بخرافية السند تلغي الذي أقدمت عليه، يكبر وجيبك نحوها لولا نوازع الحجر والحجر دائما يزحزح النقيض.

موقفك من النار يحرج كبرياءها ونار الذات لا تفتأ تثأر منك.

ودون أن تصارحك أكدت لنفسها، أنك طوال هجرتك في أرض فارس مارست جاهليتك باسم مستعار.

خطبة لموسم آخـر:

رصاصي الصمت يثقل زيدا، إلى وشوشة الريح من خلفه أنصت في انصراف كلي، وإليه تناهت كلمات مـالك بن قنــان:

ـ عجزت فراديس كسرى عن أن تفقد لقيطا إنتماءه الى قبيلته إذن؟

شيخ أياد زفر في ضيـق:

ـ لقد تنصل من إياديته وصار مجوسيا ؟!

قبل أن يلقي قصيدته في وصف فيضان الفرات قال راوية أبي دؤاد:

ـ لعله يشفق على الفرس من واقعة كدير الجماجم؟

وقـال زيــد:

ـ صدق ايادية لقيط سينذر الزعامات المفتعلة في القبيلة بالزوال.

وقهقـه ثعلبـة:

ـ أدري لما يستفزك انتقاصنا من إيادية لقيط يا زيد القنا.

وانتهى به صمته إلى قول ثعلبة:

ـ موقفنا سيُحرج وجوده بالمدائن إذ لطالما انتحل تمثيل القبيلة لدى كسرى في غيابنا.

ـ قبيلتنا لاتقر بتمثيلها إلا لمن تأبط هدايا الملوك،

وأحسن منادمتها، بدل أن تناله نقمتها،

ثم تمتد هذه النقمة الى قومــه.

وبادله شيخ القبيلة فكرته.

ومجددا دعا ثعلبة بخمر، وانتظر كلمات مالك بن قنان الذي قال:

ـ لقيط لم يزد على أن نصحكم.

واحتد شيخ إياد:

ـ نصحنا بإسناد أمورنا إليك، أو إلى زيد القنا؟!

وتراجع مواصلا وهو يقهقه ساخرا:

ـ وكأن المجد مقتصر عليكما ؟!

من متـون السيـرة:

قبل أن تأذن لنفسك بتأبين إياد تأبينا مسبقا، تذكرت ليلة القبيلة الجار، و صراخ الحبيبة التوأم بأروقة النعمان السابع عشر، و جروحا تشجرت على ذراعك منذ نهايات الرحيل عن تهامة.

وقبل أن تستبدل هويتك، أحسنت النظر إلى مديونية اللجوء إلى قبائل ربيعة، حينها كانت فيألق اللفيف القومي في مضارب غسان ـ التي قيل إن معظمها قد تجنس في أزمنة القحط الكبرى ـ تنعي رفضك للتجنيد.

ليلا سلمك زيد القنا حكما قضائيا بالإبعاد، مدانا صرت بالصعلكة غير الرسمية، وبتحويل قافلة بزنطية مهتمة بتأمين الحجيج إلى مكة؛

وخارج القبيلة أعلنت حقيقتك.

وبأنهج (الحيرة) احترفت التشبيب والصلاة ولعبة الرمح المحظورة.

جاليتك تلبست بحسن استقبال سيف بن ذي يزن في منفاه الثاني.

وبعض من تعرفهم يحفظون مراثي النعمان السرية في عدي بن زيد بعد صلبه إياه، يدعون إلى حرق كتب النابغة الذبياني الذي قال بثنائية الإمامة في آخر اعتذارياته الملغاة.

في بهو قصر الخورنق، حيث إتُهمتَ بالنبوة والسياسة والسفاح العلني، أنصت النعمان إلى مدير مخابراته فيك. وأكدت كاهنة إياد

لجلاّسها، أنك ستعتـزل كثيرا من إياديتك بعد أن تطفلت على منتديات علم الأديان المقارن.

و حبك من نظرة أولى لا يرسم خط رجعة في حال الرحيل إلى (الحيرة).

بكوخ أقمتموه للزهد والفراسة والشراب، نسبت وسطى المعلقات إلى الأميرة (ماء السماء) ليس حبا في النعمان، ولكن فقط لتغيض أميرة المدائن. في ذكرى رحيلك تنصرت سرا. و سرا أقالتك الكنائس الرسمية في مؤتمر عاجل، وعوض أن تعتنق نار المدائن انتقاما من القسطنطينية أقمت لنفسك إلها من صنع محلي، أسميته (ذا الكعبات).

وقبل إبحارك إلى المدائن، وضعت حاشية لآخر البكائيات الحرة التي ينوي الديان بن جندل نظمها في فدائيات ذهل بني شيـبان.

يومها ركبت رغبتك في الصعود. والصعود احتراق تمارسه النفس المغامرة. وأدركت لأول مرة أن للعيون الفارسية قانونها في المحاصرة، في نظراتها المشبعة بشموخ الهمالايا و تموج بحر قزوين، تتمرجع أناشيد زرداشت و إصحاح مزدك، و ثالوثات هرمس.

زادك من النظرة الأولى ظل يصارع الماثل، و في نهايات العام حاولت أن ترحل، لولا أن نبضك المتصاعد ألغى تراتيب الرحيل.

ودون أن تصير في عداد وفد القبيلة الأم، دخلت إيوان الشرق بكوفية مستعارة. وحيتك وصيفة الجناح دون أن تتقزز كما توهمت.

على جانبيك عبقت مربعات النار. وعلق أنوشراون شخصيا وهو يتصفح أوراق إنتمائك:

ـ خريج معهد الحيرة؟!

وثالثة قبلت الأرض، إلى أن أعادك ضباط في زي مدني إلى سابق وضعك.

وأضاف انوشروان مستدركا:

ـ ولكنك من إياد يا فتى؟! وإياد وحدها ترفض المثول ضمن خرائطنا!

ـ أنا من بشائر البث الأمامي للزحف الناري يا مولاي.

ومن يومها صرت كسرى بطريقة أخرى.

مجالس السمر والإفتاء:

زيد عاود قراءة ما بيده من أناشيد لقيط

وقال:

ـ نصح بأن نولي أمرنا محاربا مجربا.

وتعالى صوت شيخ القبيلة:

ـ وليس بمترف ولا أدرى مـا وجه تجربته

إن كان حديث عهد بقيادة القبيلة.

وأكمل زيد نصيحة لقيط:

ـ ولا بذليل تخضعه الشدة.

أزبـد ثعلبة:

ـ الشدة لا تخضع إلا السوقة يا زيد

وتحرك راوية أبي دؤاد:

ـ لن نقاسم لقيطا شروطه وسنن القيادة قد حددتها

قصائد الثنـاء والمديح عنـدنا.

و ثانية شك زيد في جنسية الخمر التي يعاقرها ثعلبة، و قال شيخ القبيلة:

ـ لا أعتقد أن للقيط من الولاء لنا ما يدفعه للمغامرة بوظيفته السامية في ايوان كسرى، فالرجل من أقرب المقربين؟

ـ ظن أن مبادرته ستبقى في طي الكتمان وأن بني إياد خالية من عيون كسرى.

وإرتبك ثعلبة:

ـ ولكن لإياد مصالحها المشتركة مع المدائن يا زيد؟ ففارس هي مصدر التسليح والغـذاء والـرأي.

ولاحظ شيخ القبيلة:

ـ ثم أشار لقيط بإسناد أمورنا إلى رجل لا ينام، أحقا يوجد

بيننا من لا ينام يا بني إيـاد؟!

وتضاحك ثعلبـة:

ـ لعل الرجل يعني كلابنا، فهي وحدها التي لا تنام!

من تراتيـل الــذات:

في إحدى حانات النار غنيت أنشودة الحكيم الإيادي قبل أزمنـة الولاء:

كان منـــــــــا

أجــود الناس

كعب بن مامة

وأشعر الناس

أبـــــــو دؤاد

وأفصح الناس

قس بن ســاعدة

وضاحكا قال لك نديمك:

ـ ولم يبق منكم إلا **ابن الغز**.

وفي عربدة لعنت الجود والفصاحة والشعر و

في (عمرة) أعدت التفكير، و(عمرة) حجر ميناء قبيلة هجرته

السفن تباعا نحو الصيد والشقرة والخرافة، والعيون الظليلة مع بدايات الأشهر نصف الحرم.

في هجرتك اصطحبت نموذجا مصغرا للحجر. وحين أهدر شيخ إياد دمك لتعاطيك بعد النظر قبل البلوغ ـ أخفيت الحجر في قلنسوة جلبابك على غرار ما تفعلون ببقايا التمـر.

ليلا شقت سفنك العباب يناوشها الريح ونباح كلاب عرفجة بن وائل. حينها أهديت الكلاب بعض زادك لتروضها على مسالمة الفارين من قبضة ثعلبة، وثعلبة أحب بهارج الروم، ومنذ صباه إجتذبته أسواق بني قريضة، للمرة الألف أنذرك بوجوب نفي الإعتقاد في إمامة هرم بن سنان والحارث بن عوف، زاجرا قال لك:

ـ الجزيرة لا تتسع لقنصلين مستقلين كـ (روما) و(قرطاجة).

كرنافال المدائن أخفق في محو عادات الإرتداد فيك،

فارسيا صرت إلا في أشيائك الصغيرة المهملة،

وخامات الزجل الفطري.

كاهنة إياد قالت لك قبل الرحيل الأول:

ـ إذا تشعب القلب تجزأت الرؤى.

السر في حليمة:

جماعيا أنصتم إلى كلام شيخ إياد:

ـ روى الحارث أن موقف لقيط قد شذ عن

تقاليد الأدمغة المهاجرة.

وقال ثعلبة:

ـ هذا الأبله كان عليه أن يحترف المعارضة

ويقتحم قبيلته ليلا على صهوة فيل فارسي مدرع.

كاي معارض محنك.

وأكمل شيخ إياد:

ـ عوض أن يتعاطى الحكمة في زمن المغامرة.

قال مالك:

ـ عادة لا أثق في الذين أعيد تركيبهم يا زيد.

لكن أمر لقيط يبدو مختلفا.

وأيقن زيد أن بني إياد أسقطت العمل بأناشيد لقيط

ولم تعاود القسم خلف جفان دمائها، وبعنف ينتهره السؤال:

ـ من سيحارب بني إياد بديلا عن كسرى هذه المرة ؟!

ـ مالك بن حارثة هو من يقود جيش الأساورة لحربنا.

همهم مالك بن قنان؛ وقع كلماته أجلس زيدا فشارك ثعلبة بعض شرابه، وعرفجة يهامس الذي يليه:

ـ استدعت غسان كبيرعيونها من المدائن للتشاور.

ـ غسان تحكم أنفاسها معاهدة حروب اليمن، لا تنتظر منها جديدا.

رد زيد وإستزاد ثعلبة خمرا.

ـ ولكنها استأنفت الترحم على قتيلي يوم الحارثين

أردف ثعلبة وبكى زيد قتيليه بأدمع أولى وقاطعه مالك بن قنان:

ـ أنت من قاد ساريته نحو غسان يوم فاتنة الشام حليمة.

واعترف زيد فقال:

ـ وأنا من أبكاها بأمر سري من كسرى وهو ما يبكيني الأن

ـ وحليمة بكت لأن الروم وصفت المعركة بالحرب الأهلية

ـ ساعتها كنت أجهل مصطلحات الحرب يا مالك.

وأحضرتم كاهنة إياد للمرة العاشرة، فقالت بعد إغفاء مطول:

ـ لقيط أهداكم أحد أصغريه أهداكم لسانه.

لعنـة الفصاحـة:

في غفلة من محلفي النار زارتك أميرة المدائن، ولكيلا تُتهم بالمروق القومي بكتك فقط بين يدي نفسها، متعاون غساني أبرق إلى روما بالنفيرقالت لك الأميرة شبه معاتبة:

ـ في مطلع قصيدتك ركبك الحنين إلى دار (عمرة)؟!

ـ هـا. ووا. ووا. هـا.

السؤال أجفلك وصعدت السكوت كدأبك، عيناها تجتثان مخلفات النظرة الأولى وأردفت في حنق:

ـ أين تختزن ثرثرتـك؟!

ـ هـاو. ووا. ووا. هـا.

خلف ندوات قس بن ساعدة إرتحل خلدك، و لعنت الفصاحة مرتين ،إمتناعك عن الكلام يوزع الريبة عبر أجنحة المعتقل، و سيدة المدائن يدمي صمتُك دلالهـا قالت:

ـ هل سرّبت خطة هجوم جيشنا إلى قومك فعلا؟!

ـ هـا. ووا. ووا. هـا.

ـ ألست بمتجنس قديم العهد بديوان المدائن؟!.

ـ هـا. ووا. ووا. هـا.

ـ ربما صرت نصف مغترب فانخدعنا فيك؟!

ـ هـا. ووا. ووا. هـا.

ـ إياد رفضت نصيحتك لأنك خالفت المواثيق الدولية؛

ثم أعلنت خلعك. تكلم أرجوك.

ـ هـا. ووا. و وا. هـا.

وبكت علنا دون أن تخشى هجاء المعارضة، أحقا هناك من يبكيك؟ قبل أن تتلقى منك مراسم الإنصراف أومأت بإحتجاز أوراقك. وببسمة غير رسمية شيعتها.

هل اكتشفت زيف ولائك لمقدسات الـدول الكبرى؟ عبثا حاولت أن تنحت ربـا ثالثا بين الخارطتين، الصليب نبذك بعيدا والأميرة شكّت في ناريتك الكلية، ومذكراتك لا تحدد حاضرك الإعتقادي عكس عدي ابن زيد. والقبيلة أعلنت خلعك لأن قصيدتك تهدد السلام في آسيا.

وفي إنتظار قمة أخرى لتبادل السبايا سيدعو إليها خطيب قبيلة مزينة، تشذرت بقايا إياد عبر تماسات الجزيرة، تلاحق سراهـا خرائط العمليات الكبرى والعيون المأجورة سلفا، وأبواق النفير المرتزق.

وخوفا من الساسانيين العرب، ألحقت إياد بالبزنطيين العرب ليؤذن لها بالرحيل ليلا إلى الحبشة. وهناك أعلنت قوميتها الأخرى.

ـ المجون المقارن يبيـد النظرة الأولـى.

أوصتك كاهنة إيـاد.

ـ لن تعود إلا وكلاب عرفجة أفصح منـك.

و لما فتحت فاك لاحظت الأميرة خلوه من عضلة اللسـان؛ فصاحـت:

ـ بسكين من أعدم كسرى فصاحتـك ؟!حين قطع لسانك؟؟

وعوض أن تشاركها البكاء شممـت الحجـر

فانصرفت وهـي تقـول:

ـ هـذا شنيـع فأنت لست صحافيا ليُقطع لسانـك.

القاهرة 1983

---

(1)هو لقيط بن يعمر الإيادي الشاعر الجاهلي المعروف..

- ## ضـــرائر الصمـــت:

منذ حين أنـهى كبير الحي كلامه والنسيم ينبعث من مكان ما ،الوافدون على حلقة الجدار يكابدون مثقل سهوم أوهم الكبير بأنـهم في حالة انجذاب كلي اليه، رغم أن الاستماع في مجلس الجدار أنـهى مذاقه:

ـ الكل يمعن في الإنصات الى فوران نفسه.

قيل هذا من جانب ما، وتراجع الذي حاول أن يقوم، وكدأبها مرت فتاة الحي في صمت، لون المشهد المغاير تأخذه طفلة الجدار في نظر كبير الحكماء.

نحو العزلة، مجلس الجدار باستمرار ينداح به المكان، كركام يابسة في بحر يستقل، كالعادة ترسخ في أذهان المارة ومنذ أزمنة النزوح الثاني أخذ في التشكل، وجها أخر صار لأماسي المدينة، وحده السمر يحفر في الزمان وكؤوس الشاي المسائي تمثل موعد غبوق جاهلي معكوس التوقيت.

وعلى دأ بها المدينة لاترحب بجديد، لأنـها لم تعد تطمئن اليه عكس سابق عهدها.

ـ السعي ذاته فراغ.

لحظ رجل ما قبل ارتشاف الكاس:

ـ السائل المنعش يرفض تسكين

الخواطر.

رد الذي يليه فاسكته كبير الحي لكيلا يرتج سياق الحديث:

ـ عن أي النزوحين نتحدث؟

تساءل.

مجلس الجدار قلما يلفت المارة الى وجوده، رغم أن عيون جلاسه لاتخطيء أي حركة تمر قريبا منه، أو دبيبا ما على ضاءلته:

ـ إنها فخخ جاهزة، كاميرات رصد أبدية.

قالت سيدة على عجل. قلن. وقال. وقالوا.

المارة عن كؤوس الشاي بأدب يعتذرون، في صمت يسخرون:

ـ هل أخطأ من سفّه المدينة؟

ـ المجالس عادات
ريفية تقرف المدينة.

المدينة حركة، دأب، كدّ، مصالح، سعي، سرعة، مكابدة، صدام مع الوقت، ليست مجلسا للشاي، مرامي كلام الكبير تنغلق على أذهان من لبوا دعوته للجلوس منذ حين قال:

ـ إبان الهجرتين لم يتح متسع لحمل

كل شيء.

الطريق المهشم أمامه تمخره حافلات نقل حضري متأكلة الفولاذ كاكواخ يهتز تماسك صفائحها أمام حدة زوابع، مترعة بالنسوة والأطفال أبدا، لا جديد فيها إلا أسماء ملاكها، الكبير لا يستقلها البتة، يفضل السير راجلا، يرفض امتطاء علب السردين كما يسميها، سجيته الريفية لا تطاوعه على الالتصاق بالأجساد من كل زواياها، كيف يسيغ هذا ؟ ذات مرة كاد ينهش شعر فتاة أرغمه الازدحام على الوقوف مباشرة خلفها، لكن ما حيلته:

ـ والنساء مدار حركة المدينة

ومركز انجذابها وجذبها؟

تحت صيحات المطارق والأزاميل تشرئب انصاف الأبنية، تتطاول، جدار يعلو جدارا، ومساحة تلتهم مساحة، واستزراع قصور،هي إذن الجبال الشاهقات هكذا اسماها الكبير، لعل الشعار اليوم ينطبق عليها بدل غيرها كما قال.

وفي مجلس الجدار، أحاديث وأحاديث عن الوصال والافتاء، والسوق والمجد، وحروب المائة سنة الأخيرة، كل ذلك يساق في خليط متماسك، كبير الحي لا تعنيه مصادره في مسائل الخلاف، ولذلك يتعالى لغط حوار بينه وبين أحد جلاسه الى درجة المشادات، يرفض التصويب ثم يختتم ثورته بقوله دائما:

ـ في الخلاف رحمة.

لازمة يكررها لايفتأ ليلطف غلواء الشجار الذي يعقب الجدل عادة، ما ليس مسلما به هو الطارئ فقط، بصعوبة الأعين تفتك منظره

وازدحام الأنهج يأخذ أنظارالكبير أحيانا، الدهشة لاتقول بالترويض والصمت يزعجه، وبحوافي المجلس لطاولات التبغ تتسع الأرصفة،

والتبغ درجات كالمدخنين، ودورات المغيب تلف تلال القمامة أمام عينيه كل مساء، ومع ذلك حفيف فتاة الحي يلطّف المكان كلما آن آوان مرورها منصرفة أو عائدة.

الدهشة يطالها يومي الترويض، والصمت يزعج كبير الحي، نحو الأفاق الممتنعة يهرب به حيث كل ألوان المكان تمتزج، تتعقد كالمصالح والغايات في المدينة.

ـ الذي حدثني حدد علامات الساعة.

مقولاته في نهم تتشربها الحلقة، مطمئنا كان الى وقع كلماته في مجلس الجدار، وفي نظره لايوجد خارج المجلس سوى العدم، وحدهما دعاء الآذان ونداء الجنازة يشلان نبرات الكبير، يحيلانه إلى صوفية مشبعة بحنين، ويكسبانه وقارا تراثيا يجلل كؤوس الشاي:

ـ سر الإتزان.

ـ عكس كل سائل أخر يرفض أن ينساب في سكون لكيلا يفتقد مذاقه.

فقوام المجلس متعتان، الشاي والكلام إذا اختل أحدهما انفتح المكان على الوحشة.

ـ براءة.

ـ إفراج.

ـ اتهام.

غالبا ما يأخذ المجلس مادته من المحاكم، محاكم المدينة، قد يكون الراوي شاهد عيان أو قارئ صحيفة .أو راويا ثالثا أو رابعا لا يهم المهم هو الخبر الذي يعقبه رأي بالضرورة.

والكبير لايتسع سمعه للصحيفة كما هو شأنه مع الراوي، فللصحيفة أساليبها في عرض الأخبار، وللراوي متعته في التنميق.

وحين اختفت فتاة الحي أثناء ذهابها، فرّ الكبير من صمته الى نفسه. صد هدير قارئ اليومية، عن الإنصات انقطع لأن الإنصات حين يتجاوز هموم الحي يحمل صفة الشرود بدوره.

الى أحد جلاسه أومأ ليعاود حديثا كان قد اجهضه صاحب الصحيفة حديث الحي كان مستجدا فعلا:

ــ اشترى سيارة.

ــ ابتنى سكنا ثانيا.

ــ زار طبيبا.

ــ خاصمت زوجها.

ــ حادث اصطدام.

ــ .....

كبير الحي زفرفي تذمرأنهى كلام جليسه معلقا:

ــ أمور لا طريف فيها.

أمام إصرار الكبير تراجع كلام الجليس، بخياله طاف عبر أجواء الحي أي جديد حدث؟ في قرارته تساءل، صاحب الصحيفة انصرف وأحضر جار ثان صنية شاي أخرى ودعا الكبير وجوها جديدة من المارة للمحادثة والاستماع معا.

ــ الشاي حديث غير مسموع

دعوة هو سريعة للموت إذا افتقدت لسان الحال.

من قرية نامت بتماس الأطلسين نزح الكبير داعية ريف لايحسن الحديث خارج الفروسية والشاي وصراع الظلمة والثلوج، وهروبي النبض. وكانت المدينة نهاية أمره.

المدينة؟ ما المدينة؟ أرياف تجانست، تراكمت عبر السنين، هو ذا ما يؤرق بعض مستمعي الكبير، غالبا ما سأل:

ــ حين يلفظك الريفُ وترفضك المدينةُ ما أنت صانع ؟

وأربكه أيابُها مع نسيم المغيب، ساعتها التمس مخيالا وسطا، أقحم الفائتَ في المتحرك بين يديه .

أسيرا كان يُحسن المكابدة وتشده لحظات تفكير في آتي الأطفال؛ و آتي الأطفال شغل وعنوسة وتعلاّت تسرب وتسول، لكن إنكـــــاره للضائقة لا يلطفها، الفارون من عدم ما يشغله أمرهم، لا لشيء سوى لأنه لايزال يستمر في تهريب سر البادية؛ فالبدوي غيريّ الاهتمام بطبيعته، ربما لزائد فضول في تركيبته النفسية، لذلك يُشرك الأخرين في أمره ويشاركهم شأنهم من غير استئذان حتى.

وحدها فتاة الحي حين تمر مع المساء تفقد الجمع تركيزه، كسهام نافذة أبصار الشيوخ تنوش مفاتنها، وكعادتها تمر في غير ابتسام والكبيرلا يعرف بعد كيف تُنبتُ الأحياء الشعبية غوانيها، إذ بكل حي شعبي يلحظ مشروع غانية حتما قد يكتمل في يوم ما.

المدينة بهديرها وانصرافها عن نوازع الفرد، تكبروتكبر وكأنها أرسلت ببقية حنينها الى مكان ما خارجها، لم تكن تتلقى قِيّمها من الريف كما في سابق أمرها بل صار هو الذي يأخذ عنها، كما ومنها يجتلب الخبز والحليب .

والمدينة لا أحد فيها يحتاج إلى تلقين، الكل يرضع حروبها مع الصغر.

الكبيرمر بهجرتين؛ كلتاهما ارتبطت بحرب أو ما يشـــــبه الحرب، رفض أن تعامله المدينة كإبرة في بيادر خرطال، بها ليس هناك من يدعوه باسمه، شهادة وفاته أيضا سينوب عنه من يستخرجها، المدينة تُلغي الأسماء لأنها اذا احتفلت بها صارت ريفا بدورها .

أنهك الكبير تفكيره فتلمس كأسه من جديد، كان يُضمـــر العودة إلى مضارب الريف فور انكشاف العاصفة، فليهجرعلبة الضجيج هاته التي تُسمى بالمدينة، إنها من مرادفات الضيق والتسول وسقيم الهواء وغرابة الأطوار؛ جنون هي لا سند له، يُقال ان الرسميين بها حلوا محل أعيانها ومع ذلك فالمدينة لا تسلس قيادها لاي من الطرفين.

شعوره أحيانا يخترق مقولات النفسانيين دون علم منه أو تعلم، أنكر القول بالانسجام البعدي وأبقى على نظرته فقط، فالريفي ريفي بحضور نشأته في أغوار نفسه، وعكس المتعالمين ظل قياس الكبير ذاتيا ممتنعا عن القبول بنظر مزاحم .

ـــ لكن العودة بدورها مغامرة.

أسرالكبير الى نفسه في صمت مغامرة هي، إذ لا شئ يمكن الركون إليه، هناك ـ وقد انمحت مواقع التوهج التي غالبا ما شدت إليها وجدان الكبيرـ اختفت نقطة البدء هناك كما اختفت هنا أيضا ولاموقع بين الحافتين، لاموقع بين الحافتين لا موقع بين الحافتين، وصاح الكبير كما لو انه اختنق:

ـــ لاموقع بين الهاويتين !

ونظر جلاسه بعضهم الى بعض في ذهول دون أن يسألوه لأنه غادر مجلسهم في تذمر ظاهر.

وفي هذه المرة رفضت نظراته الغاضبة أن تستقبل فتاة الحي أثناء عودتها.

لم يعد بالمدينة ما يشد بصره والريف ذاته يشفق من معاودة النظر اليه، لقد أمحت المدينة قابلية اندماجه في الريف من جديد وفي ذات الوقت امتنعت عن احتضانه، هل عليه أن يبحث عن حيز وسط؟ ومن أين له به والسماء أبعد من أحواز الارض؟

الرحيــل عبــر تعاريــج الإثــارة:

من دلائل إخفاقك أن تتبدي للآخرين فوق منطقية، هدوء الفضاء الخارجي للمدينة تتشرّبه الطائرة المقلة لك الآن، والعبورأطوار أحدثها أن تقفزي بمئات الأميال فوق حدودات واجمة خلف الإثارة، أن لاتعنيك طوارئ المدينة وأذكار ساداتها العائدين من رجع التصابي وتناسخ الكهولة.

مارستِ تهريب كل شيء؛ حتى أشيائك الضليعة في الفتنة، أتقنت لغة الجمرك، منطق الليل وطقس الفصول العابرة، ومبغى الإمتاع في أجنحة الكُساح الفطري، قبل عام لم تكوني سوى مهرِّبة من طراز بسيط يبهرك الوامض الليلي قرب حواجزلا تُركن مطاياها مع المغيب.

نحوه، نحو القعيد يصرفك خان الضفة السفلى كآخر موانئ الاقيانوس، وبك تتيه مروج السوق الانتقالي، والظرف الانتقالي والحب الانتقالي.

توهج طموحك يثخن في بقايا كلفة لم تعد سوى مفتعلة، كليا من ذاكرتك انمحت كلمة أحد الكبار حين قال: " كل الأشياء تحركت إلاّك" و قال. وقال، وأنت تنبذين الكبار حين يركبهم الكلام.

منذ أكثر من عام، كنت شبه وصيفة في القصر الذي انمحى رونقه بفعل غبار الخيل، يومها لم تدركي قواعد الإدلاء، كان يسكنك صهيل فطري مكبوت، هذا الصهيل ـ كما أيقنت آخرا ـ هو صهيل المغامرة، والمغامرة رحيل خلف الشبق والتوق عالي الطيران، و لطيران مطاردة متفاوتة الوجع.

أّجّلت سليقتك، صرت قابلة للتركيب من جديد، وجدانك لم يتحرك نحوه إلا إبان لقاء ما، وفي أعقاب الهزيج استأنف بصرك لعبة الشرود شطر اللامرئي، ليكبر الطموح ويكبر، وحين لامستْ أنامل سيد السوق وجنتك المتوهجة لم تحاصرك الدهشة كما في أزمنة الجموح المنسابة.

كله خدّك هوى نحو الأصابع العابثة ليلاحق فلول الدفء.
المتمردة، وكعادتك لم تنتظري افتتاح الدعوة، بل من بهو الفندق انصرفتما كما لو أنك في لحظة نقاهة، وأطفأ الفجر أعقاب السجائرو قادك حنين مبهم بعد النشوة إلى حيث ينام أطفال ورجل مقعد ينتظر محصول التهريب.

ومن سوق (..) تلقى مكالمة على عجل، وأدرك أن الطائرة التي تقلك قد أقلعت منذ أحد أرباع الساعة.

ـ لـمَ تعودين ؟!

خواطرك تتردد.

ـ لم تنفلتين من الانطلاق ليعاودك الحلم ثانية وثالثة؟!

خواطـرك تتـردد.

السوق أنهت نوازع الانغلاق فيك، كل ما تقدمين لها نافذ، حتى و حتى، كبرى سيدات الأعمال هناك في بلاد الانغلاق الأكبر قالت لك:
ـ الانفتاح كالانغلاق.

وتساءلـت:

ـ ولكـن؟!

ومؤكدة صاحت في وجهك:

ـ كلـي ومطلق.

وتراجعت خواطـرك:

ـ ففيـم عودتك إذن؟!

هل كل الوجوه تحمل نسبة ما من ملامح التجني؟! الثغور يركبها القنوط، تذعن لقادم ما، لم يعد هناك من يتشمم أوراقك إلا هذا الأشيب المفتوح على بقايا اللمس والقبل والإبصار العكسي.

في نفسك لا زالت هناك فواصل يؤرقك استقرارها وقد اكتسبت ثقل المسلمات، حين قدومك يحرق الصوت المسافـة، تتصابـى الأرقام في مراجع عرّاف الثغر، والثغر رديف الثغـر وموجب نفاذه.
ـ السوق قيمة الأشياء؛ كل الأشياء.

باغتك الرجل قبل أن يتحفظ إذعانا لصفة ما يتمظهر بها.

ـ والنـاس و.

أضاف واستسلم للسكون كسابق دأبه، عيناه ينغرز لفحهما في وجنتيك، يخشى اختفاءك ثانية وثالثة، تتوقفين يصرف بصره عن حقائب زينتك، وحده من بين من ترين يلحف قوامك في استدراجه، بينما

الآخرون نشاوى بصرير المواد الموصى بحفظها خارج أحواز الضوء إلى إشعار آخر، والضوء في كل الحالات حارق ربما لرابطته الوراثية بالشمس.

وبادرك الذي يقف قريبا منك بسؤال:

ـ متزوجة؟!

وأجفلك السؤال المنعكس على تذبذب رموشك المجهدة بثقيل السهر والسهوم وبقايا السمر، قلت كما لو أنك تنفين تهمة آخذة في التركيب:

ـ من زوج عاطل

يكابد أولى مواطن الهوان.

وعدت إلى نفسك تحادثينها:

ـ في زمن ما قبل الزمان كان صياحه يلاحق زوايا حيّنا

تخافه العائدات الى منازلهن بعيد المغيب.

خارج الحصار كنت تخافين حصاره إلى أن تقدمت منه ذات ليلة مطمئنة إلى انسياق الزمن:

ـ جارتي (ح) تتاجر في سلع (..)

وتلمظ دون أن ينطق عكس دأبه، والصمت نطق بدوره إحالة على الفعل كما فهمت وأنت سريعة الفهم في الذي تكابدين.

وانكفأت إلى الخلف، بغتة بدا لك أن الأشيب يرفض دلالك ربما لتماديك فيه، هل لأنك تكرهينه بدون مقدمات؟ وهل في وسع واحدة

مثلك أن تكره أو أن تحب؟ الحاجة وحدها هي التي تحدد موقفك دائما، وحاجتك إلى الأشيب لا تزال قائمة فأمتعتك بين يديه وأوراقك لما تجتاز بعد شباك التآشير.

فلول انشراحك أخذت في التراجع لحظات التصاق مخيالك بإحدى ليالي تطوّافك عبر حواضر العالم الأول.

ساعتها كانت الباخرة الحاملة لعلم ما تمخر العباب، تتشرّب نسيم الأفق البعيد، وبأسنتها التحتية تلاعب صغار الحيتان في إشفاق يراعي حق الحيوان ووصايا (بريجيت باردو).

ولمحتجز المشاعر ـ بما فيه الكفاية ـ ولفيضان الرعشة ثم لاحتياطي النبض اتسع مرقص الباخرة الليلي، كان بيضاويا دافئا، وكنت هناك تضعين يدك على خدك في حيرة، وعيناك تائهتان خلف القدود الراقصة وأدركت أن الرقص أنهك الجميع إلاّك، شاردة خلف كأس ما وعيناك

الواسعتان الغامضتا الخضرة ترسوان أخيرا عليه، مثلك هو الآخر لم يجرفه تيار الرقص.

مثقلا بصمت إعجاب غادر منتهى الرواق، رواق الرعشة وقبل أن يدنو منك بادر في جرؤة:

ـ لنرقص سويا.

خطاك بك تثاقلت في أول الأمرعكس يديك اللتين قفزتا نحوه بدون مقدمات كافية، ثم تبدد ظاهرامتناعك، و قبل أن تسأليه عن وجهته حدثك عن أشياء لا رابط لها؛ منتهى رحلته تطوافه عبر كوبنهاغن وأوسلو وزوريخ ووو وافتتاحيات من مغامراته، و بدا العرض مغريا و ظل يهمك أن تعثري على مفتاح ما لفلاذي شخصيته، ورغم تفتّحه تمنّع عن الإدلاء، لكنه أربكك حين رد على سؤالك :

ـ أنـا .....!

وفي تشنّج تراجعت يداك عن احتضانه وصحت متأوهة:

ـ ..... ماذا تقول؟ !!

قلت ذلك دفعة واحدة لهول المفاجأة، دكنتك الوافدة لاحظها فضحك:

ـ أعرف أن ذلـك قد يفاجئـك.

تيار الهمس انقطع لم يعد موصولا بسمعك، وهو يحاول ترميم شحنة اندفاعك من جديد قال لـك جادا:

ـ مـاذا دهـاك؟!

هو ذا السؤال الذي تكابدينه حتى قبل أن يصارحك به، الأكيد لديك أن توازن ميزاجك لم يعد ذلك الذي اطمأننت إليه قبل أن تعرفي بعض حقيقة الرجل.

وثانية سمحت لشعور محايد بداخلك أن يتدفق وفي شبه غير اكتراث قلت له:

ـ ومـاذا في ذلـك؟ كـن من شئـت

ـ أو لسـت بعـربيــة؟

ـ بلى.

كانت البشرى التي جرفته نتيجة إصرارك غير متوقعة، إلى أن زاحـم انتشاء خواطـره كلماتـه المندفعة في غيـر انتظام:

ـ ألا يهمـك كونـي .....؟!

وهززت كتفيك في غنج تتقنينه:

ـ اطمئن قلت لك كن من شئت.

ـ ولكنـك عربيـة؟!

ـ لا أحتاج إلى أن تذكرني بذلك مرة ثانيــة

ألا يحق لي أن أقضي ليلة سمرعلى ظهر

باخرة ؟!

وضحـــك:

ـ ومـع أي كــان؟

وبعنف انتهرتـــــه:

ـ إذا كنت قد تجاوزت الحـد في نظرك فلماذا أثرتني؟!

وفعلا تراجع الذي بات يخافـه فيك، لقاؤه أنساك أنك لا تزالين على سفر بحري، ليلتك تلك ـ بكل مقاييس المتعة التي تعرفينها ـ رائعـة و بادرته وقد شـارف اللقـاء علـى الانتهاء:

ـ لم تحدثني عن حقيقتك بما فيه الكفاية!

ـ وما الفائدة وقد انتهى كل شيء بيننا؟

ـ ولكنه انتهى بما تعـرف.

وتمتـم ضاحكا:

ـ كأي مواجهة تجمعنا بكم.

وغضضت بصرك منكسـرة:

ـ أعـــرف.

وثانية حاول ترضيتك:

ـ لقد أخبرتـك.

ـ فقط أريد أن أعرف أكثر.

ـ إنـه عرق يقوم على أشياء كثيرة.

وقلت في تجاهل مقصـود:

ـ لا أفهـــــم

ـ قد تفهمين يوما فكلكم لا تفهمون إلا بعد فوات الآوان

وحاصرته عيناك وهو يقرّ بروعتهما وقلـت:

ـ مـن تعـنـي؟!

وأشعل سيجارة وهو لا يزال منصرفا إلى إعادة تنظيم مظهره وقال:

ـ أعني من تنطبق عليهم كلمتــي.

وبعد أن غادر غرفة الباخرة في زهو، لملمت ثيابك في تصاغروذلة وحاولت أن تقولي لنفسك في شبه تعزية، وأنت تتصفحين أوراقا نقدية ناولك إياها قبل خروجـه:

ـ ومـاذا في ذلـك؟!

لكن وقع كلماته كاد يفجر دماغك وقد أحدثت في نفسك صدمة وأي صدمة وأنت تسترجعينها في خوف:

ـ أنـا موساوي.

وتساءلت فزعـــة:

ـــ يهودي.إسرائيلي؟اا ماذا تقول؟!!

الأشيب اختلس سهومك حين أومـأ إليك بالاقتراب، وقد أعاد إليك حاضرك، إشارته تلك نقلتك من زمن إلى زمن، كانت أمتعتك قد أشر عليها منذ لا تدرين، وأوراق سفرك منظمة على طاولة أمامك، فتأبطت أشياءك منصرفة باتجاه مخرج أمامي للمطارعلى غرار من سبقوك، ليذكرك ذلك بانصرافك من الباخرة قبل أعـوام.

سعيدة (الجزائر) في عام 2006

العبـور خـارج دائـرة الزمـن(1)

من خصائص القضايا الشريفة أنها تلجأ إلـــى متون التاريخ كلما ضاق بها المتسع الذي تعودت عليه داخل نفوسنا، لكنها مع ذلك ـ ولحسن الحظ ـ لا ترفض استقبالنا كلما دعتنا الحاجة إلى استحضارها

الكاتب

إهـداء:

إلى المجاهد المنور بوبليحة الذي عاش وقائع هذه القصة وروى الجانب العسكري منها، وصارع ألآم الجرح وتهديد الذئب منفردا، دون

أن يقوى على احتضان بندقيته الملقاة قريبا منه ببضع خطوات نتيجة جروحه، فتحية إكبار وتقديرإلى هذا الرجل.

الإفـاقــة مـا قبـل الأولــى:

إلــى آخـره.إلـى آخـره.

الكهل يبث البيادر وصاياه العشر، في حذريتطفف الحنيـن، أحاايين التضور تتأزم في أهاجير ٍالصقيع، والناي الوحشي ينفث ذبذباته في اغتراب.

الطعم ألحنظلي يتحلب، الضماد الفولاذي يكبره الذراع، ولقائط الساعات تتشرب آلاف الأشياء في غير نكهة، تتبنى الاستعصاء.

كل ذلك لكيلا تتحفز بوابـة الزمن للانغلاق، ويظل أمامها متسع، في هذه الأثناء كانت بقايا أنفـاس غرناطيـة ترسل دفئها في حذر وكمين (مـا) يتوثب للانقضاض، و جبين المغيب مقطب، وحفيف أشجار الوادي يأخذ شكلا استفزازيا، ودمدمات رصاص بأعالي المنحدر.

أعواد الأيك من حولي تتناثر، و السيارة " الجيب " تندفع في جنون، وبلبل مصاب بفقدان الذاكرة يترنح؛ لمعان الخوذة الفولاذية يتكثف في توثبات إشعاعية.

بالتواجد يتناقص شعوري، يتضاءل رغم أنه ـ في حد ذاته ـ ينطوي على بذرة إصرار لم يعد ميئوسا من طاقتها.

أطرافي أثبتت خلوها من الحركية، في مناجاة مهربة تتجاوب و أنين سري صامت يرشح، بعميق استياء أتشرب عبث جهودي، ووطأة الإغماء تشتد وقد عاودني؛ " بوداود " تصاب أنفاسه بكبت ديمومي.

في احتراس شديد أختلس إحداث شرخ انعكاسي في دوامة الحشرجة، المحاولة استأنفتها بكل ثقله، ينقضّ على الأنفاس سؤال مبهم، يتشكل في قرقعات دوي غير منقطع، قذف مدفعية مركّز، يعقبه انبعاث شلال مائي متدفق في سباق نحو الأسفل.

ـ احذروا الفيضان.

استرخاء في وهم التنويم يعاودني، أسترجع مقولة " أحمد " زمن احتضاره،

السيلان يعلن هجوما فوقيا؛ الينبوع القوي يتفجر نتيجة قذيفة مجنونة، وشجرة عرعار تحترق أفانينها، وداخل الستارالضبابي تختفي قسمات الجبل العملاق، تكتئب، ورائحة فولاذية تزكم الفضاء، تلاحق آثار النفحات الغرناطية الآخذة في النكوص.

ـ النار أصل الوجود.

مخطوط ساساني يذاع لأول مرة. لكن بلغة غير ساسانية.

الإفاقة الثانية:

الأنفاس أزمنة تنفلت بدون ضوابط، تنفلت دوني، وعواء ذئب جائع يهدد أشلائي في مغازلة مكشوفة، يستشهد " أحمد "، الفوج الثاني يقتحم الحصار، و يتوجع الليل، الفخذ المتورمة في نتون تتفرد، تتخثر تستقل عن المكان.

في عمق الجرح تتحرك قذيفتان صادرتان، آلام تنطفيء لشدة الألم، ينكأ يزايله النبض.

أسراب العموديات تحلق حوله، حول الجرح، يحاصرني يجبر عيني على الإغلاق، إغماض العيـن إبصـار مهرب، الهاجس معلق وبالأعلى يمتزج التيار المائي بألسنة اللهب في جدلية تقوض ركام السفوح، قشعريرة حادة تسري؛ استشهد عبد المؤمن قائد الكتيبة.

ـ كان رحمه اللـه.

في نبرات مخيفة يشتد بالقرب عواء الذئب العقور تعلو خياشمه بقايا احمرار، وبأنيابه حثالة رميم مهمل.

ـ إيـه.الذئب.
عفت شهيتـه حناجر الخـراف حين ألف لحم البشر.

قالها الكهل للمنور و

وبقايا خبز لحق بلونه تغيير وحمائم الإغماء تتراقص، أحمد أحمد.
صدر أمر بإقتحام السد؛ سد النيران الامامية.

في اتجاه غير محدد أزحف اندفع، شلل نصفيٌ اصاب به يعيق الأطراف السفلى، ألج الكهف الموالـي زحفا وبصعوبة، الجرح نتانته تتصاعد مع مرور الأيام، تهيج الذئب، وتقضّ مضجعي، لو تطاوعني أطرافي، أو أدرك لو أسترد، لو لو لو، إرهاص الإغفاءة يكتسح الدماغ و العواء يتضاعف، يشتط، وخارج الكهف يشتد دوي المدافع.

ـ آه تذكرت.

ـ تحرك الذئب هجومي دائما إلا في حالات، إلا في حالات.

وصاة الكهل وهو منصرف لتفلية ثوبه المتسخ، بإرهاص الغيبوبة كدت أدفع، بوداود راوده حلم غير مرخص به، حَلُم بإرتداء جلباب وبري جديد، البارحة أخفى قماشه المهترئ حين جاءه المسبل الميلود بجلباب وبري؛ صارااليوم كفنا له، لم يرتده في حياته فلبسه في موته، الكهل حدثنا عن عين خرافية بأعالي قمم الخروب، صخرتها جهد أربعين رجلا بالغا.

ــ كانـت، الغـول تتخذها إبريقـا.

أفاد الشيخ صالح وقهقهنا وتنهد الكهل، لقد تفجـر.

ـ ابلغوا الكهل أن سلاح الجو دك هندستها فعمت الجراحات الجراحات.

والجرح في أتلامه السوداوية الحواشي يتجذر الصديد مكونا من فتات الحجارة، أعواد الشيـح الذاوية، مترسبات الوحل اللاصقة به بالجرح ذي الرصاصتين، وكلها تكوّن خليطا أخذ في التجانس مع السكينة بالعمق اكتسب صفة العضلة الموازية.

وبوداود يتسع شرخه العمودي على قفاه، ومادة دم قانية تصبغ الجلباب الوبري لتصيّره كفنا، عيناي تتلفعان دون أدنى مقاومة منذ لا أذكر عواء دوي فيضان انسحاب لمعـان كفن وبري وطعم أعشـاب.

الإفـاقــة الثـالثــة:

صدر أمر، وهمسات تفيد بإستشهاد القائد، والحصار مضروب وقذائف هاون وعموديات إنزال ومقاتلات على قمم جبل (بوعمود) ـ تزيل الاخضرار.

الفوج الثاني يشرع في الانسحاب، مرابض المدفعية الجاثمة بالمنحدر يشتد أوارها، أفانين العرعار تحترق تباعا بدون حذروالدخان يتصاعد ليرسم مروحة ملقاة على طاولة (الداي التركي)، جذوع الخروب يقتحمها السيل من اأعلى والنيران من أسفل، و كالهائم أزحف والعواء يستمر، لايخشى النار والقذائف لأنه يستعد لوجبة ليلية يحرص على حمايتها منذ الآن، وجبة من عضلات جسمي الجريح، يتجاوب عواء الجرح المنبعث من الداخل مع عواء صاخب يرسل من خارج الكهف أخذ يشتد مع حضورالليل.

للمرة الأولى أتنهد رغم عناء شديد، ودوار يلازم الرأس، غفوة تثقل بصري، الأسمال ونتانة الجرح المتقادم تفوح برائحة كريهة، تستنشقها المناخر بعد تقزز ذاتي.

ـ استشهد عبد المؤمن.

ـ لقد كان رحمه اللـه.

الدوي يقاطعني يلجم لساني.

ـ وطنيـــا.

الكهل يحمل تفاسير طريفة للوطنية، في رسالة له إلى قائد عرش " جنين بورزق"، قال:" الوطن ليس ترابا نصونه فحسب يا أبي"

قالها وأبطل إغلاق القوس.

لدبيب غريب ذراعي تصدع، الدبيب يموريتبطن مقدمات موت بطيء.

بوداود ضاق نبضه المتلاحق، أبكـيــه في سري، شُج رأسه بشظية ملعونة، العواء أنفاس تلفظ بقوة، الخشخشة، الذئب وألسنة لهب تلتهم أغمار الدفلى العلندية، والنبض تداع مباح.

ـ تحرك الذئب دفاعي إلا.

ـ والذئب فت شهيته حناجر الخـراف.

ساعتها تخيلت أن أنامل الكهل تربّت على جبيني في رفق، في تؤدة تتريث سريان دبيب؛ هل عاد الكهل؟ أم تراني جننت؟

ـ كـان وطنيــا.

ولحظت أنه أجهش في خفاء فغـفيت عمـدا.

الإفـاقــة الـرابعــة:

تورّم في رأسي للمرة الأولى أحسه، ذراعي اليمنـى لا تطاوعني على السكون، ألم يستجد يعتصر، محمود حمل جريحا يتأوه.

ـ لقد سبقكـم إليهــا.

لاحظ الكهـل في صـدق.

منذ لحظات، يسود موقع الذئب سكون، يعتزل تثوير الهشيم، يدخل في طور من الصمت لسبب ما.

ـ تحـرك الذئب دفاعـي إلا.

تجربة موفقة، عيناي، صداع نصفي يقبض على ما فوق الجبين بعنف الزمن، الشظية شجت رأس بوداود نصفين، الدم يهرق في سخاء، سمك الظلام يتضاعف، يشتد يتكور فيما لا نهاية.

جوع ممزق يتطاول بي، خفقان يتوانى سعيه وفخذ متورمة ككتلة مضافة الى جسمي عديمة الحركة، تقاطع عملية الضخ الوهن في صدود

ثقل الغفوة يزاولني ووجيب الذراع يأخذ في نباح ينفث العظام، كتمت توجعا، انفردت بالألم والانفراد شيء آخر في لغة الليل.

ـ إلا في حـــالات.

وفي اليوم الثالث أوالرابع أوالخامس لا أدري، ترسل الشمس فضلات أشعتها على جنبات الكهف اللغز الذي أقيم به، العواء يتطاول لايزال وفق إيقاع ممل، لقد فشل هجومه طوال الليل بفعل الأضواء الاستكشافية التي كانت ترسلها الطائرات عن بعد، قواي استجمعتها، العواء من جديد يحاصرني، يفزعني الألم الصداع، القذيفتان أتجمد،

أنفاس الكهل تستحوذ على السمع، هامسة تعانقني:

ــ المنور. المنور. المنور، لقد صرت في عداد هم.

وأضاف قبل أن يقوم من جوارك:

ــ صرت من أعلام القبيلة، صـــرت

كالإفريقي والسندوفـــة وابن الشلالي

والطالب ابراهيم وفيصـل، وأخرين ممن

كان لكل واحد منهم يومه

وهذا يومك.

ثم أضـــاف وهو بصدد الانصراف:

ـ إنها أيام تكاد أن تصبح من حيث

الشهرة، كأيام العرب يابن أخي.

أتم الكهل نصيحته إلـى المنور، وهو يعدد عشرات ممن صنعوا أياما كيومه هذا، ثم انقطع صوته لكن أنفاسه تزورني، روحه تطوف بي تلهمني تشجعني، تدفعني إلى الفعل رغم طاقاتي المنهارة، إنها إنها.
أمامي؛ أطياف تتراقص حلقات بدوية، رنات بارود، أبحلق في انشداه وثني، على جبين الكهل أرسم قبلة بدون توقيع وقد توسط الحلقة بقامته الفارعة، بعباءته الطيسور وهو يحتضن بندقية صيد، ثم يصوب طلقات نحو الفضاء؛ نحو قباعة مرصعة ذات بريق، قباعة ضابط من اللفيف الأجنبي، لقد قال لنا الكهل ذات مرة، وقد كان يحسن الحديث عن الماضي:

ـ اللفيف الأجنبي الراهن، تقليد لما كان يعرف بالقوات

الإضافية الأجنبية التي عزز بها الرومان مستعمراتهم،

إنهم يجدون دائما وفي كل زمان من يموت عوضا عنهم.

طلقة مركزة أصابت ذراع محمود فحمل جريحا،
والنهر العلوي تنقذف مياهه في سباق نحو المنحدر، لم يكن به ماء إلا في أزمنة الفيضان الموسمي، أما اليوم فقد فجرت أعماقه طائرات ب26 إلى أن صارت أمواجه تأطم الأكام، اللهب يصارع كهول الخروب، وعبد المؤمن يلحق بالنفاثة أضرارا بليغة.

ـ في سجن النصارى مكثت ثلث عمري.

افتخر الكهل، أصفده العسكريان، إلى شاحنة مغطاة قذفا به،أما أنا فبالقرب من فوهة الكهف حددت النظر الى البندقية؛ بندقيتي يؤلمني كعبها الملقى، المتدلي إلى أسفل الصخرة، لم أقو على تأبطها زمن الزحف نحو الكهف، واجترارالفخذ المصابة، إذ فجأة تراخت أصابع يدي فتدحرجت البندقية إلى أسفل الصخرة؛ وسمعت الكهل يصيح بي في غضب:

ــ المنور؛ البندقية. إلا هي.

إلى إعادة احتوائها، إلى احتضانها في لهفة، تهزني رغبة جامحة، في عناق طفولي أغازلها لولا أن المسافة ــ على قربها ــ تتمطط في وحشية، والوصال يرتسم في صيغة تيه لا مَعلم له، يتمرد الذئب على بقايا تحفظه، يصل عواؤه حد الاستفزاز وقد اقترب الى حد رميه بحجر، لو كان بذراعي قوة على حمله، يستعيد شحذ أسنانه على مرأى مني مرارا ومرارا.

والكعب خارج الحصار يغترب

وداخل الحصار يغترب الذراع

والدم في قنواته لا يمنح حق السريان

والقذيفة المغامرة تتبطن الفخذ

ينطفئ الحنين في جذوات الحنين

الحلق يبلله مذاق انعكاسي اللذة

وطعم حنظلي تتحلبه اللثة.

الوصاة السادسة:

ــ سجين بالوراثة؛ سنوات تسع منفى

" بجنين بورزق " قبل الطوفان.

طوفان نوفمبر، وفي معتقل "أجنين بورزق"، كان أعلام جزائريون ومغاربيون وأفارقة، أسرى في شبه ائتلاف قاري، وكان الكهل هناك و

رغم اختلاف هوى معتقليه من معمرين تقليديين وفيشيين وأحرار(2)، لم يطرأ على سجنه أي تغيير.

ـ وفـــــار من السجن؟!

استطرد العقيد موجها كلامه إلى الكهل في حزم.

ـ وعلى جوازك خـاتم " خـراطـة "؟!

ما يطمئن الكهلا أن الرضيع لم يعد يلثغ اسم الأمير، وألحان تراثية تنساب في غير انتظام، كـاهن نوتردام يصدر فتوى في تأويل السبع الآوافك، والسجين يلقي بكوبه الحديدي في وجه الوصيد، ضرب الكهل كفا بكف، أعرض عن السمر قبل زمن الحصاد.

"" "" "" "" ""

ـ حدّثنـا حدّثنـا يا عمي الكهـل.

ـ عـــن؟

ـ عن وعن وعن، عن عين الحياة وأهوال الطريق، والمواكب الجنائزية التي اقتحمت المغيب، وشظية أحمـد، وجرح المنور وأحقـاب المنفى والسـوج المكهربة، وبـوارالصبايا في محتشد القرية وسريان العتمة في تضاعيف الغسق.

حدّثنا حدّثنا عن الهمس يتلذذ

مشافهة بأقاصـي الثغور.

كنتُ والعواء والكعـب الملقى، والوصـاة السادسة والفخذ المتورمة ودبيب الذراع ولغة الليل، ونفاثة عبد المؤمن وأعجاز الخروب المتهاوية والإشراق المكتوم.

في لحظة انعتاق مختلسة أدني مني غمر الحشائش البرية الذي ذبل قبل موعد الإفطار الثالث، وعيون بشرية تتموج بحدقتها زرقة وراثية تقع على سحنتي في اشتهاء، كعب البندقية يختفي عن ناظري، وتسد فوهة الكهف ظلال أشباح شبه أدمية.

إنهم العسكر وقد أطلقوا النار احتياطا باتجاه زاوية الكهف، كان الرامي ماهرا بحيث أصاب ذكر سحالى على الفور دون أن يصيبني، بينما أطلق أخرون نيرانهم خارجا خلف الذئب فلم يصيبوه على ما يبدو، وخلا المكان إلا مني ومنهم في مقابلة هي لهم منذ البداية، وأشحت ببصري ما أمكن عن بندقيتي الملقاة بأسفل الكهف لكيلا يتفطنوا إلى وجودها وحسنا فعلت.

ما أصعب فراقها، كانت رفيقتي وحاميتي، ودليل مناعتي، بحيث لم أأسر حتى عجزت عن ملامستها، مداعبتها، الكل كان معجبا بها حتى عبد الله الألماني، ذلك الرجل الذي ما أن التحم الجيشان في صيف ما حتى تسلل باتجاه رفاقنا، وصار في صفوفنا على رتبة ما، كان ذكيا ومثقفا وفوق ذلك مغوارا.

وتبللت عيناي لفراق البندقية وعبد الله الألماني، وابن الشيخ حمادة الذي استشهد إلى جانبي، ورجال كتمت أنفاسهم أحراج جبل "بوعمود" الخشنة وتلاله الصامتة، كعبد المؤمن وأخرين، لكنني تحاشيت أن أكفكف دموعي، حتى لا يعتقد العسكر أنني في حالة خوف من الاعتقال، أوأنهم نزلوا رحمة علي في وحدتي، وفي كهفي.

كان عواء الذئب قد علا في عملية التصاق دفاعي بطلقات نارية مركزة، الكلمات تسنبل و يشرئب السكون، الصوت البشري يستعصي عن فهمي، صوت العسكر، منذ سبع ليال لم أسمع إلا شقشقة الطيور وعواء الذئب وحفيف الأشجار، ودمدمات المدافع وصخب الطائرات إلى

أن أنكر سمعي نبرات الصوت البشري، وها قد استحال رطانة غريبة المخارج، أوعواء ذئب.

بل لعله أنين مجهد يتصاعد في انطفاء. وباشر الجند مهمته، فأخذت الجراحات تكبر حجم الأصفاد الفولاذية.والسياط يحدث أزيزا في جنباتي العارية، فيحدث صفيرا على نحو ما قريبا من فحيح الحية، وفي طريقنا إلى عربات نقل الجند بالأسفل دخلنا طور ممارسة ترويض على الحبو تحت لكز البنادق، و و.السياط، فازدوج الألم، ألم الجراح وألم الترويض.

وفي هذه اللحظة افتقدت الذئب الذي رافقني طوال الأيام السبعة حتى ولو ظل يهم بافتراسي، تمنيت لو أنه لم يقتل، لا لشيء سوى لأنه جزء من هذا الجبل، ومن ثمة فهو أقرب إلي من هؤلاء.

ـ اسمك؟ من معك؟

في الأثناء ذاتها كان قارب وردي على الضفة الشمالية للبحر المتوسط يلامس أمواج نهر (السين) بلطف، وبلطف تنفتح البسمة و تنحني ذؤابات شعر أشقر.

ـ حياتك.

أعواد الرتم تستنطق التراب عن الجواد الجرماني الرافض للصهيل في عتمة الدجى، وعن قوس النصر المنتصب على المدخل الغربي للمدينة، وعن صلبان خشبية ذات أربطة نحاسية، وأشرعة مهترئة يهاجمها الحوت في بداية الفيضان، و مائدة الافطار الصخرية المصوحة أعشابها.

أرتال عربات نقل الجند وارتال الدبابات تقلع مع الأصيل، تغادرالجبل محتفظا بصمته كشاهد أبكم، ونظرات ضامرة تصحر في التخوم، تهاجر الطير معي، صغار الرمث تصد قبلات النسغ، يرتجف

لغم أرضي متورم في حنايا الأدغال فيقذف بعيدا بسيارة 6/6، وأعلق ضاحكا في صمت:

ـ إننا دائما هناحتى ونحن محمولون

على ما يشبه الأنعاش.

وعبر أسوجة " شال ـ موريس " المكهربة يتخذ الوصال اسما مستعـارا.

كنـا أربعـة، كـان الكهـل وكنا.

ـ اسـمـــك؟

النفس الغرناطي يتقولب، تنهد موجع يحوصل رذاذ البسمة الوافدة من أعماق ذكر، ويومض حرف ضوئي فوق بوابة النخاسة الحدودية، تتدحرج دمعة شاردة على ملصقة بتوقيع مشرع اسبرتا ((ليكورغس))، وتركن العربات داخل المعتقل، ويصطخب المزلاج الرصاصي ليدير قفل بوابة الزنزانة، فيعفن سطل الماء غور الجراح؛ جراحي، فأدخل في دورة إغماء ثقيل.

الوصـاة السـابعـة:

خضراء تمارس النحيب سرا، وأشواك السياج تبرعم خلف المحتشد، وزفرات ريح تعصف بسوق العرفـج الدقيقـة.

ـ أبكـــم؟

أتلام الوصيد تأخذ في الانمحاء، تتمخض عن جداريات " اليوناردية "، مع العناق تندثر الفرجة، على متن شراع عنكوبي يبحر الكهل تلقاء (إرم) وإرم يغمرها التراب.

وتدمى الجراحات يغترب الأنين، في ضبابية تنعقد أبعاد المكتب المطرز الحواشي، قبعة مرصعة ومنظار وغليون ذو ربطة نحاسية، و مذكرة مكتبية مفتوحة، وصكوك على بياض وبطاقات مؤطرة بالذهب، و مسدس وبقمقم زجاجي أسماك للنزهة.

في عتمة الشخيرالمرّكب تضيق مخارج سؤال المستنطق البدين، يتمخض الحرف، ويمتص فرس البحرنفسا طويلا يهتز له الغليـون.

بداخل السجن، ومن أحد أجنحته الفولاذية تـتأوه عذراء رفضت الحياد، فيعلو تصفيق بجانبي احتفاء بالحدث، الشـلل النصفـي، الشـلل النصفـي.

وعلى الباب الخارجي يرتسم رقم (2) شارة مرور لمكتب الاستنطاق المبكر.

ـ سبقكـم إليهـا.

الشمس تتـثاءب في فراش من صقيع، ونسيمات هامسة تتسلل عبرجنبات بـرج (أيـفـل).

ارتجاع الرمث يتبطن أمعائي بدون تأشيرة، والجرح يتطلع نحو رشاش جاثم على ظهر زورق صيد بنهر السين، قيل إنه غير حربي، ودمعة حيري تناقش قضايا الفسخ غيابيا، والخرطوش ينازع السنبلة يخضورها المورق، حوافرالجواد تفرقع رضراض الصخر و المعتصم يتحين الصهيل و يشير بإحضار درعه الأغواطـية.

ـ فـرخ الثمانية دفعتـه للجهـاد.

واصـل الكهـل إملاء مذكراتـه، وكان يعني مسدسه الذي يعود إلى عهد المقاومة المسلحة، وهو ينسبه إلى تقنية الحرب العالمية الثانية، هكذا روي عنــه.

هوامش :

(1) فا زت هذه القصة بالجائزة الأولى لمسابقة الذكرى الثلاثين لاندلاع ثورة نوفمبر – التي نظمتها جريدة الجمهورية (النادي الادبي1984 .
(2) الإشارة إلى حكومة فيشي وما عرف بفرنسا الحرة.

ينابيـــع النار:

1ــ أطياف النطق:

هناك في نهايات الأسقاع المجبولة على التمدد نحواللامتناهي، حيث لا طير يشدو ولا زهرة تغامربالنماء، هناك حيث لا تستقيظ الشمس إلا وهي تفرك عينيها المغمضتين في انشداه طفولي لخلو المكان، هناك تقيمين إلى جوار كثيب رمل قد نحتت الريح الغاضبة قمم جوانبه في عناية فنان، وأسلمت وجهه نحو الشرق ليبدو مجلّلا بسكون الوحدة والتفرد ككل مظاهر الأرض هناك، لا يعانق إلا الأشعة ليستمد ذهبيته من لونها، ولا يخشى إلا صولة الزوابع حين يدعوها المغيب لتعرب عن أقصى أقصى عنفها.

لقد انتهى امتداد المومأة ولمع جبينها الذي صهرته خيوط الشمس مباشرة وعن قرب، حيث لا واقي لها منها إلا قطع من سحاب تركظ باتجاه المجهول تراجع اندفاع السماء ولما تنته أبعاد عينيك، كان لونهما "التارقي" الجاذب لايمازجه إلابعض لون ثوبك البارودي الذي ارتخى كلية على طول قامتك الهيفاء في غير ما اختلال لبيعطي المكان بعدا أخر.

كنت ـ عكس بعض من صادفتُ ـ سافرة الوجه وقد تفرد أنفك بلطف أرنبة محببة إلى النظر، من إحدى زوايا البناية المحلّاة الواجهة بطلاء بني، كان صوتك يصل في غير ما استئذان، رقيقا يصطحب هفيف ريح مهرّبة من قبضة هجيرمزم، وقد هذبت عذوبة الصوت بعض صرامته ربما رفقا بمن يسمعه لأول مرة مثلنا.

ساعتئذ ارتسمت بسمتك التلقائية كما لو أنها تشع الخصب في اكفهرار الجفاف المخيم على ملامح المدينة، والمدينة ـ رغم حركتها ـ تبدو في طور المستسلم للفتور لاتزال، لكن الذي أجاد فن المحاصرة بحق؛ هو نظراتك الواثقة بطبيعة الحال.

ويسألني بعض من معي:

ـــ هل لأن نظراتها محملة بأطياف النطق يا معلمي؟

ساعتها أشرتُ عليه ليشركني إمعان النظر، وقد انغلق عليّ الجواب، وخلسة هممنا بقراءتها معا؛ فإذا هي نظرات مثقلة بالمعنى، تنزع نحو الشرود كظباء العرق الشرقي المجاورالتي اتخذت من ضواحي مدينتكم مرعى لها، إنها تشاطرها دوام التحفز للوثوب نحو الأبعد، و الأبـــــعد أبعدان، أبعد في الزمان كقوافل "إهرير" التي توارى حاديها في غفلة من راوي التلال المشرأبة في هرمية متمايزة الأحجام والقامات، وأبعد

في المكان كمدينتكم التي هاجرت تلقاء الشمس فأوغلت إلى حيث لا بحر إلا عينيك.

تحت ازرقاق سماء يميزها الصفاء، تستلقي المدينة كما لو أنها خرجت من كنف " العرق الشرقي" على عجل بعد طويل عراك، وخلفها تدندن الريح بأحجية الأماسي فرحا بعودة القناصة، وقرب أرجلها تصطف كثبان متوهجة كأثداء عذارى عاريات يرقصن وسط لهب آبار نفط متأججة، وقد رسمت ينابيع نار مزروعة عبر الفضاء الطلق فتبدو الأرض من حولها بين ظاهر كئيب وعمق متدفق بنعمة الثروات.

ومع ذلك لم تعلني علينا الكلام حين تزوينا قريبا من مجلسك، نتطلع إلى بعض الظل هروبا من حرارة لاهبة وقد تقضى الضحى، كنت فقط وفقط تبتسمين ربما إمعانا في الترحيب بنا على عادتكم.

وبعد فتور اهتمام عادت إلينا عيناك جادتين هذه المرة، لتحملانا إلى زمن تلقّى فيه مرتفع الحجرالرمادي أولى صدمات النقش على خده الموشوم، فحمل الميسم الذي دُمغت به أعناق إبل القبيلة الأم بعد أن باركته الملكة " تين هينان"، وتطوّف به شيخ الثوار " آمود"، قبل أن يستلقي بين ناظريك الرماديين كل صباح.

وقالت مرافقتك تسألنا بعد استئذان:

ـ سواح؟ أم تجار؟

2 ــ طلائع الطير:

وتبادلنا النظر فيما بيننا، فنحن في الواقع نجهل الحرفتين معا، ثم أشارت إلى دكان للشاي كان قريبا منا، يديره شاب شديد السمرة فاحم الشعر، وقد جلس إلى جواره شيخ هرم نحيل، قد امتدت لحيته إلى أسفل راسمة شكل لسان، كان يستهل حديثه مع زواره بقوله:

ــ حدثني كبير أجدادي إنه هو من روّض القفر
وافترشه قبل استئناس الريح والماء، ثم وفدت

أولى طلائع الطير والسحالى.

وما أن حوّلت ناظري الي مرافقي في دهشة، حتى استأنف الشيخ كلامه في ثبات مُدرّس محترف:

ــ ومنذ لا أحد يدري هاجر أبناؤه الى اليابسة

خلف البحر.

وعلق صاحبي ضاحكا:

ــ يعني (حرقة) (1) مبكرة.

فقلت مصوبا:

ــ بل إنه يقصد الانتشار الأول.

3 ــ انشودة البقـــر:

وبالقرب من المرأة الأسطورة نزل كهل في هيئة إغريقية عاري الزندين والساقين، قال مرافقه قبل أن يجلس كما لو أنه يزيل حيرة الجميع:

ــ إنه غلام هيرودوت وقد جاء ليصحح
انطباع أستاذه عن بقر إفريقيا الذي لم يعد يسير
إلى الخلف بعد أن اكتشف الأمام.

فاندفعت المرأة الأسطورة إلى القول:

ــ بقر كان يسير الى الخلف؟ وكيف؟

وقال المرافق الإغريقي وقد اعتقدنا أنه برتبة راوية:

ــ يقول غلام هيرودوت ربما حدث ذلك في زمن ما
يا سيدتي.

ومن داخل الكوخ المجاور جاء صوت الشيخ الهرم مزمجرا هذه المرة:

ــــ حضورالمحترم هيرودوت هوما دفع بالبقرإلى السير
نحوالخلف يا ابنتي.

ورفعت المرأة الأسطورة رأسها نحوه مبتسمة، قبل أن تتفقدنا بنظرة حملت إلينا صفاء أفاق إيليزي الممتدة.

---

(1) هي ما يعرف بالهجرة السريــة أو الهجرة غير الشرعية.

مدينة إيليزي في 29/28 مارس2011

شعائر الدخول إلى أديرة الألوان:

فازت هذه القصة بالجائزة الوطنيـــــــة

الأولى في مسابقة أدب الثورة التي نظمتها

وزارة الثقافة والاتصال عـــــــام2001.

(فرع القصة القصيرة)

تنبيه: إن هذه القصة لا تعني أحـــــدا بعينه، والأسماء التي وردت فيها جاءت اعتباطيا.

في انشداه مشبع بإجفال، عيناها الزرقاوان تحاصران سحنتك المتداعية، دفء المكتب أخذ يهذب قشعريرة وافدة تمخر جسمك منذ هذا الصباح الشتائي، دهشة المثول الأول لا تزال تلفك، ودون أن تمنح حق الجلوس غامرت بالسؤال:

ـ أبحث عن ملف أحمد صالحي -1- من فضلك.

في عينيها المثقلتين بالأصباغ تراجع فلول الدهشة، العيون الزرقاء في معجمك ترسم فلسفة انتفاء لا تقاطعك، على زر ثابت إلى جانبك ضغطت، زر تحضير الأرواح كما أسميته ذات مرة في أزمنة الاستنطـاق الأكبر، باب داخلي انفتح في خفـة، موظف الدرجة الثالثـة بزر أمتثل، قالت في تكلف دون أن ترفع نظرها نحوه أو نحوك:

ـ في أدراج " ألف ـ صاد" ملف أحمد صالحي.

ـ من أي الولايات هو؟

استفسر موظف الدرجة الثالثة منصرفا ببصره نحوك، نظرة مركزة سددتها إليه في غير ما حنق، قبل أن تندفع بالجواب ودون أن تنتظر

تدخلها، من حيث ظهر يختفي ثانية موظف الدرجة الثالثة، حق الجلوس ظل ممتنعا عنك، المقعد الوثير تقززه رائحة أسمالك غير المتجانسة.

وأنت شخصيا تود لو تظل منتصبا لكيلا يحدث ارتطامك بالمقعد أي اصطدام غير متكافئ، منذ أن أجلسك السجان على مقعد حديدي مخشوشن الحواف لم تركن إلى مقعد، العينان المشعتان بالزرقة عادتا إلى مناجاة أوراق يومية، الحضور يتقلص في نظرك، الحيز يحافظ على استثنائيته، الزمن وحده يمضي في تراوح ممل، أنت تعرف لون الزمن، أساس دورانه الحركة والإحساس به.

في مذكراتك غير المكتوبة لم تشكُ ثقل الزمن، معظم لياليك قضيتها هكذا منتصبا يروضك الصقيع، تغالب الحرارة شبه عار كما الآن.

العينان الزرقوان كلية تركبان متن صحيفة سيارة أغلب الظن أن الأمر يتعلق بصفحات ترويض الحظ والكلمات المتقاطعة، في نظرك مطلقا فقد المعاين جماليته، إبان سنوات الإستنطاق الأكبر لم تطفل هذه النزعة في ذوقك، اعتقادك المطعون لكم يبرح بك:" الزرقة نفي للسمرة وللسواد؟"، علم الألوان المقارن يطمئن إلى تخريجك هذا بنسبة عالية في تركيب ما، الزرقة رونق السمرة، كدت تتمتم بها كنتاج مستخلص، لكن انسياح الشعر الذهبي على الأوراق أدهشك، بشدة يعاودك الحنين إلى الخروج وتسأل هاجسك.

ـ والملف؟ اللعنـــة؟!.

بدونه ستظل ـ كما أنت ـ عديم الدخل؛ عديم التضحية، عديم الأمس.

وهممت بالبزاق لولا مخملية البلاط ذات السمك الأرجواني، كيف قذفت بك رجلاك إلى هذا المكتب المتعدد الموانع؟

ـ قانون عقوبات متوالي المواد فحسب، يحظر الجلوس و الكلام والحركة، والبزاق ياله من مكتب.

تغريدة عصفورية تنبعث من جهاز هاتفي على الزاوية، وحدها لاحقت خاطرتك في يسر اخترقت طبقات الصمت الرصاصي الثقيل

ـ ألـــــو.

هذه الكلمة الجذع في علم اللغة الرامزة، هذا الدال اللادال وحده نفذ إلى سمعك، ثم أخذ الخطاب بُعدا انغلق عليك، الصوت يتهدل أكثر، تنبسط نبراتـه إلى حد الهمس، يجتث المكان، يحيله جزيرة عائمة، مركبا ما، لا صلة له باليابسة، بالمكتب؛ بك، بملفك، بيومك، بأمسك.

علاقتك بالصوت علاقة عكسية دائما، فبقدر ما تنفتح صلة الخط العصفوري ينكفئ بك المكان.

كنت تعتقد أن للمكالمة صلة ما بملف الحياة هذا الذي تنتظر العثورعليه، ولكن اللحظـة أكسبتـك موقعا خارج المحسوس، ربما في عالم الأرواح. لا أحد يعلم من أمر وجودك شيئا، في إمكانك الآن أن تتحرك، تتكلـم، تغني، أوحتى تكسر بابا أو مقعدا دون أن يثير ذلك انتباه أحد، لقد استثناك التركيز نهائيا.

اللحظة تتوهج؛ تنكشف في لا وعي واع، ارهاصات حضـور تليـباثي أخذت تمثل على مسمع منك، وأيقنت أن الأدوار كلها مضبوطة، موظف الدرجة الثالثة ذاته تطـاول به اختفاؤه، قلت في سرك:

ـ ربما لكيلا يحدث حضوره أيا فضول أثناء المكالمة.

النظر إلى البـاب الداخلـي الـذي وفد منه قبل حين يرهقك، .
أحيانا يخيل إليك أنه بصدد الانفتاح ولكن، بقيت وحدك محاصرا بالآهات المنقولة عن بعد، التباريح المهموسة هاتفيا تلاحق جيـوب انتظارك، يوغل الملف في العتمة ووجودك ينفيه العدم، المكان ذاته عدم إلا من وشوشة متصاعدة الهيجان لا تلزمـك..

باتجاه الباب الموصد تحركت ـ أوهكذا خيل إليك ـ أيضا ما خلف الباب عدم مطلق، على نفسك تقسو بالسـؤال:

ـ الماثل وحده وجـود، وحده الفعل، ربما لذلك
قال حكيم الزمان:" تكلـم لعلي أراك "

إلى ما لم تكن تتوقع امتد الزمان مشحونا بالفراغ، بالعدم، مجلة ذات صور نصف عارية أخذت تداعبها العينان الزرقوان، كان الهاتف قد أذعن للسكون تحت انطفاء شحنـات الهمـس، وفي حركـة لا واعية تمايل الشعرالذهبي الراغب في الانحدار؛ تفطنت الموظفة ـ خارج الإطار ـ إلى وجودك لثاني مرة، وكما لو شهدتها و هي في لحظة عري قصوى ـ قالت دون أن تنظر إليك:

ـ ألا تـزال هنـا؟

و منذ أزمنة الاستنطاق الأكبر لم تخش شيئا خشيتك نقمتها، .
وقلت في مسكنة:

ـ سيدتي وهل كان علي أن أغادر؟! سامحيني إذن.

ودون أن تتحرك انتظرت إشارتها:

ـ عليك أن تواصل البقاء بقاعة الاستقبال، يبدو أن موظفي الأرشيف لم يعثروا على الملف بعد.

ورحبت بكل هذا القدر من سعة الصدر الذي حظيتَ به، وتحركت منصرفا ليلاحقك صوتها:

ـ خارج المكتب طبعا.

أثناء دخولك صباحا لم تلحظ هذا المزلاج الذهبي الذي يزدان به الباب الجلدي الصفائح، أما هذه المرة فقد تراجعت يدك قبل أن تمسك به، توقعت أن مجرد لمسه سيلحق بمظهره الشديد الومضان هانة ما، و ركبت الخطر كدأبك منذ زمن الا ستنطاق الأكبر، و تهالك ثقلك على أقرب مقعد بقاعة الانتظار، ميزتك أنك تحسن مكابدة مادتي الخشب و التراب، حميمية هي صلتك بهما.

وانتظرت، تحت ثقل الزمن نبضك يئن، إلى جانبك حلقة الوافدين أخذة في الاتساع، وجوه كئيبة تأخذ أماكنها في صمت ثقيل، كصمتك، وقد أدركت لتوك أن لعنة الملف لا تخصك لوحدك، وأن ملف الحياة حلم الجميع، وشدت نظرك وجوه أخرى تباشر الدخول في غير ما عناء:

ـ مسعود هنا؟

قال الأول.

ـ هل دخل عبد القادر؟

قال الثاني.

ـ مولود موجود؟

سأل الثالث.

تنهدك يأخذ لون الحقد أحيانا، وغامرت بسؤال الحارس من جهتك:

ـ كم معدل الانتظار عندكم يا سيدي؟

في وقت شبه رافض، السيجارة تموت بين أصبعيه، وبلهجة تعني الجميع قال لكم الحارس:

ـ قديما قالوا: " معرفة الرجال كنوز"، إذا كان لك موظف تعرفه بالداخل فادخل".

وأيقنت أن صاحبك قد أصدقك القول، وقلت:

ـ والذي لا يعرف أحدا بالداخل؟

وهز كتفيه في تلقائية:

ـ إذن لا يستقبله أحد.

وأضاف الحارس:

ـ مؤسستنا ليست شاذة في هذا يا سيدي.

مرة أخرى يوحشك المكان، تسكنك الوحدة، تذكر عبد الله الذي سقط قريبا منك في المعركة ذات ليلة، والصادق قتيل ليلة أسرك، و خليفة كبير أساتذة الرماية، هم فقط كل من عرفت، كل من خبرت، كل من عاشرت، كل من فقدت، وانصرفتْ كفاك نحو عينيك دون ثبات، هل تعاودك نوبات النحيب؟، على ايامهم كان الكل يستقبل الكل، الكل يرحب بالكل، والكل يعتقد أنه للكل، ثم قلت بصوت مسموع وكأنك تحادث أحدا ما:

ـ لو عاش واحد منهم لكان سيد بعض هذه القلاع الرافضة للترحاب.

وكأنك تلغي كلمتك الأولى:

ـ أوربما ظل ينتظر دورا في المثول فلا يتاح له مثلي.

تراجع بك الارتجاع، من حولك الحلقة أخذت تنفض، وهو ما أعاد إليك بعض وعيك، وصفق الحارس معتدلا:

ـ ساعة الخروج حانت يا سادة، منتصف النهار إلا عشرين دقيقة.

وهامسا دنوت منـه:

ـ ولكني تركتهم بالداخل يبحثون عن ملفـي؟

وصادقا سألـك:

ـ من تعني ياسيـدي؟ من هؤلاء؟

ـ من أعـني؟! لا أدري؟ لا أحـد.

وفي هيئة حكيم هز الحارس رأسه مرددا:

ـ " معرفة الرجـال كنـوز."

وانفرج الباب ذوالمزلاج الذهبي عن وجه الموظفة خارج الإطار، فتوقعت منها تعزية ما، ولكنها لم تزد على أن ابتسمت في وجه الحارس النصوح، وكدت تقول له: "ومعرفة النساء أليست كنزا بدورها؟؟!! "

لولا أن مسحة من جدية أخذت تطبع مظهره منذ أن رسم الممر الرخامي هيئة شخص أصلع ذات بعد رياضي، وبادرالحارس:

ـ انصرفوا، إنه المدير فوق العادة انصرفوا.

وتثاقلت بك خطاك كدأبك؛ إلى أين ستنصرف إذا انصرفوا؟ لم لا تحاول اعتراض طريقه كما فعل بعض من يقف إلى جانبك، ولكنك

لازمت مكانك، عيناه الضيقتان ترمقانك في غير ما عناء، وهو يحادث من تقدم منه، خيل إليك أن العينين الضيقتين تهبانك نوعا من التركيز، و تحركت باتجاه الباب الخارجي وقبل أن يوصلك السلم بالرصيف، ربت الحارس النصوح على كتفيك وقد لحق بك على عجل، وقال في أنفاس متلاحقة:

ـ السيد المدير يريدك.

ـ أنـــا؟!

ـ نعم أنـت.

وعدت أدراجك يرفعك التساؤل والحيرة، وقد سألت الحارس:

ـ المدير يدعوني هكذا رأسا؟!! لعلك أخطأت؟.

حين لحقت بالمدير كان الحارس قد اختفى في أدب بروتوكولي كما اعتقدت، وبادرك المدير فوق العادة بالسؤال فقدمت نفسك وحاجتك، وانتهى الكلام إلى موعد بعد الزوال، خطوك الوهن يربكه خليط من الريبة و البشرى في تركيب غير متجانس، أغلب ظنك أن مظهرك أفتك عطف الرجل، تبا لحكمة ذلك الحارس " معرفة الرجال كنوز".

ذهبت إلى حيث لا تدري، في عينيك استأنف الزمن تدفقه، زايلته رتابته، ثقله، لم تعد زائدا على المكان، ولا عالة على الزمان وقد صرت شيئا من ما يحفلان به، البناية العظمى لم تعد مبعث خوف كما في الحالة الأولى، السلم ذاته يتحرك في طواعية نحو الأعلى؛ نعم الأعلى، قاعة الانتظار تنفتح مغالقها الباطنية، العينان الزرقاوان لا يقرفهما منظرك المهترئ هذه المرة، الموظفة السامية تسرع باتجاه الباب حيث تقف أنت:

ـ تفضل ـ سيدي ـ إن المدير بانتظارك.

اللهجة جديدة هذه المرة ما في ذلك شك، المدير لم يكن وعده سياسيا إذن كما ظننت، لقد تحقق اللقاء فعلا، و بحرارة أكثر حياك مرة أخرى وإلى جانبه أجلسك، أحسست بعينيه تمتصان محياك كأنهما الأشعة :

ـ ماذا دهاه؟

تساءلت، ولكن دائما في قرارتك، ومنك دنا أكثر ليواجهك بقوله:

ـ في أي المناطق قضيت سنوات الثورة؟

ـ في منطقة ("""""""""""""""")

ـ تعرف الملازم السوالمي إذن؟

وأجفلك السؤال؛ هو ذا الحجر الذي يتعثر ملف اللعنة في ثناياه لسنوات وسنوات، وقلت:

ـ لم أزد على أن قمتُ بتنفيذ الحكم الذي صدر في حقه.

واكتسحتك قهقهته الصاخبة، وقال وقد دعا بمشروب:

ـ ولكن لم يتم العثور عليه حيا أو ميتا، ومعنى هذا أنك لم تقم بتنفيذ الحكم فيه؟

وأسندت نظرك إليه راجيا:

ـ وما سر العودة إلى أمر تقضى منذ منذ عشرين سنة يا سيدي؟

ـ شهادة منك في هذا الأمر كفيلة بانقاذ ملفك.

وقلت له:

ـ وفيم انشغالكم بمصير رجل كهذا؟ أهي الرغبة في ترقيته ام في عقابه؟

وضحك المدير فوق العادة ثانية وهو يقـول:

ـ لعله المرشال (بيتان) من يدري؟

وعاد إلى جديته حين قال لك:

ـ ألا تزال تذكر الرجـل؟

وقلبت شفتيك في استفهام مماثل:

ـ بعد مضي أزيد من 20 عاما؟ لاأعتقد، فقط أنه كان أصلع قوي البنيــة.

وفي زهو قال المدير فوق العادة:

ـ أنا الملازم السوالمـي.

ووجدت نفسك مدفوعا إلى الوقوف بشكل أخلّ بأدب المقابلة وقلت:

ـ أنت الملازم سوالمي الذي كلفتني القيادة بتنفيذ حكم الإعدام الصادر في حقه، فعفوت عنه سرا عوض أن أعدمه؟

واعتدل المدير فوق العادة قائما بدوره وأكمل قولك:

ـ وكنت قد طلبت إليه مغادرة الجزائر لكيلا يكتشف أمره فتنعكس العاقبة عليك.

وقلت كما لو أنك تتأكد من صحة ما تسمع:

ـ ثم ماذا اشترطت عليك يومها بعد ذلك؟

وأعاد المدير ضحكته قائلا في كامل اطمئنان:

ـ شرطك الثاني كان ألا أنضم إلى القوات الفرنسية.

وأجلسك الموقف:

ـ أه صدقت صدقت، هذا حوار لم يقف عليه طرف ثالث أبدا.

وأمسك بيدك في لطف واندفع إلى القول:

ـ لقد كان صنيعك أفيد لك، بحيث ترك لك يدا عند مدير أحسن استقبالك، معترفا لك بعمل قمت به تجاهه في زمن ما.

وردّدت كلمته بنبر متباطيء:

ـ نعم لقد وجدتُ اعترافا بعمل قمت به في زمن ما.

وقبل أن تحدد اتجاه ما، غادرت المقعد الوثير، المدير في أثرك سعى، وخلفكما سار الحارس النصوح دون أن يلمّ بما حدث، وقفزت الموظفة ـ خارج الإطار ـ خلف مكتبها تحملها المفاجأة، وقد أغفلت سماعة الهاتف ملقاة على بلاط الأرض المخملي، كان الجميع يريد أن يسألك، أن يلحق بك، ولكن دوّامة الشارع الكبير ابتلعتك، وباندفاعك في خضمها كنت أولى ضحايا حوادث المرور في ذلك اليوم.

وجاء في محضر الوفاة، "أن الضحية قدم من خارج المدينة حيث تنعدم المعرفة اللازمة بقوانين المروروسلوك المشاة؛ فقضى نتيجة حادث سير.

مدينة سعيدة (الجزائر) في 2001

ثلاثيات ابنة الخـــــــــــس (1)

ا

قالت ابنة الخس وهي تتهيأ لدخول القلعـة:

ـ خير أنا من ثلاثة وثلاثة وثلاثة!

طبقات الضباب تضرب حصارا سميكا، يلاحق أشعة شمس تحاول عبثا أن تلامس جدران القلعة الركامية العتيـدة، والقلعة لا يبدو في إقامتها للإنسان كبير جهـد.

ـ إنها من صنع الطبيعة وحدهـا.

جادل (أفلح) مسني القرية في عنت، وبالمطلق رفض تصويبات الأثريين الهواة من زوار القلعــة، في يوم ما كانت تنبعث منها سواقي تراب، محملة بلذيذ الماء تنتهي إلى سفلى سفوح الجوار، هكذا كان يردد (أفلح) في ثقـة لجلاسـه:

ـ الصخـر منبـع المـاء.

في زمن مـا قبل وقبل، قبل أن يتبطّن الضباب منافذ الأسوار المنيعة، كان موثوقـا بكلامـه إلى أبعـد حـد، بأعماقه تتردد هذه القناعـة،

(أفلح) ابن الطريق؛ أستاذ زائر لا محصلة في هذيانه اليومي، يلقي في روع الحلقات المتناثرة، أشياء مبهمة لا رابط لهـا، وحده ظل مصدر أحاديث ابنة الخـس الحائمة في طلاقة حول بقايـا قلعتها المهشمة الجنبات، التي فقدت طراوتها، انطفأت جاذبيتها بفعل وبفعل.

كان يطلب إلى مريدي حلقاته، أن يتأكدوا جماعيا من وجود ابنة الخـس بالقلعة لأنها لا تقول بالرحيل، ويستجمع وجهه روافد ارتوائه وهو يقول:

ـ راودتها وجوه المدينة القصوى

فاعتصمت بشموخ القلعة

الرحيل، كما يفسره (أفلح) على الأقل، إبحار دائري ربما لذلك كانت ابنة الخس تمجـه ولا تقول بـــه،الرحيـل؟ لمـاذا يحمـل كـل هـذه الهالـة فـي الأذهـان؟، أفلـح وحـده يخـاف الرحيـل، لكنـه لـم يجهـش بالبكـاء هـذه المـرة.

أفلـح الذي أقلع عن الكثير الكثير من مألوفاته، يستقبل في هذه اللحظة تحيات الآخرين من الأطفال، يُكبر أن يبتسم والبسمة عنده تأخذ مفاهيم مغلقة.

الثـلاثيــة الأولـــى:

خارج متون الحنين تتألم جرحى الرؤى، وبانتفاء الحنين تمارس انطفاء ذاتيـــــــــا، وتعاريف الأوان تتنكر لمدارات الجذب الآخذة في النكوص، وأخرالنذر يتموقع بأحوازه كنقيض للشبهة:

ـ ابنة الخس لـم تمـــت!

ـ بل مـاتـت.

ـ ومـا الفـرق؟

ووجـه صوت ما، تساؤله إلى الأطفال:

ـ أخشى أن تكون قد عادت إلى أصل انبعاثها.

وردّد أفلـح في شبه ثقـة:

ـ قالت إنها خير من ثلاثـة.

وتقدم منه مريد وافد ليسألـــــــــه:

ـ ومن الثلاثة يا كبير الشـراح؟

عيناه استدارتا بغتة، تراجع تياراهما النافذان، صوته أفرز موجة تفوق الشخير، ومن دأب أفلح ألا يستعيد ثلاثية ما من الثلاثيات الخسيـــة إلا وهو في أقصى حالات التجلي، وقد استقر على طورنفسي يشبه حالة اطمئنان صوفي إلى خاطر وافد، الأطفال لاحظوا تغيرا يركب لون أفلح، رعشة بطيئة تمخر ذراعيه و ركبتيه، واندفاع قوي يزاحم أنفاسه، يضيّق حلقه..

وتراءى لهم جمع من الناس أخذ يتقدم من حلقة أفلح لحضور لحظة القول وقد آن آوانها، الكل صار يعرفها من خلال بالونات زبد ترتسم تباعا على شفتي أفلح، وصفق الحضور لأن أولى الثلاثيات أخذت تنساب عبر لسانه في سلاسـة:

أنـا خيـر من:

متكـيء على عمـــــود

من راقد وسط قـــعـود

من خيل بـــــلا بنـــــود

(وغمغم أفلح إثر انغلاق الثلاثيـة الأولـى، كما لو أنه متعب، أو أزاح حملا ثقيلا)، و بعد إفاقتــه لم يجد إلى جانبه أحدا، فأخذت تتقلص البيد في نظره لولا أن القلعة وحدها لا تزال تشده برصاصي صمتها، نظراته ترفض تسليم الأقوال المحظورة في سخـاء، كان يعتقد أنه الوصي على ماثورات ابنة الخس، ومن ثمة فلا راوية سواه.

يستمر في عرض ما يتلو الإفاقة عادة من بهلوانيات مثيرة، موسم القلعة لما يحن بعد آوان استعراض موكبه، وحماس قبيلة ما، يتوثب للانقضاض على من يليها.

ـ كيف ترحل دون أن تولّي أمر القلعة بديلا عنها؟

لحظ أفلح دون أن يهمس، مضيق القلعة ـ كما حدّث راوية أفلح ـ أخذت تهجـره الـدواب، يحتفظ فقط بآثار الفرس السحري حين اخترق باطن الوادي إعلاء لشأن قبيلة ما إبان أعوام النزيف.

فلول الضباب الكاسح لا تزال تلاحق الأنفاس، أنفاس النور، تفترس الأشعة الوهنة المنسابة في شحوب، الأكام تتوارى يلفها الغسـق النصـــــــــفـي، وصغـارالزهـر تبكـي قتلاهـا بغـزارة دمـع، الألسن تكبت أنصاف الجمل، والصمت ضريبة كل مقام.

ـ رابطغ على تخوم قلعتها فرسان البحرلسنين.

ـ قيل أنهم اقتحموا القلعة ذات ليلة وابنة الخس في

حالة عري قصوى؛ كانت تستحم.

يرفض أفلح هذا التخريج ويزأر في وجه الذي نطق به، يتأوه، يستعير سيجارة مثقوبة الوسط ، ويجتهد في إشعالها يودعها بعض محظور مسلماته، يقبّل الجدار، جدار القلعة، ثم يصطنع وقارا ويقول:

ـ هل مضى يومها.

الأفق يتجهم، وأفلح من سيجارته المستعارة يجتذب أنفاسا متتالية متصلة إلى أن يسعل، يتزوّى بجوار الصرح الآخذ في الانهيار، برنوسه المرقع الحواشي في وحشية تهاجم الريح جناحيه نصف الممزقين، وطاقية الوبر المتسخة تلفّ شعره الذي استطال إلى ما أسفلها، وصدره ينازل صفير الزوابع عاريا، وحذاؤه الفضلة يأخذ راحته قريبا من جحر يتخلل جدار القلعة، يمسح على لحيته الأشيب شعرها، يكتئب، يحادث اللاشيء في حالة وعي تام.

ـ قيل إنها لم تعمر طويلا.

" ابنة الخس" على أيام الحصار، أخفت مفاتيح القلعة فلم يعثر فرسان البحرعلى قرطاسها الحريري، وبقلمها الذهبي رفضت توقيع الإذن بالنحيب تحت شدة الحصار، فظل جواد كبير البحارة يحترف الصهيل خارج الأسوار الخلفية.

الثلاثية الثانية:

وتضرّع الخطيب لأفلح قائلا:

ـ زدنـــــي.

ـ من أرقى أضداد الحياد الحضور، والحياد رديف الصمت كهامش هو للمفاضلة، والحضوروجود بدعوة أخرى.

ـ زدنـي انه كلامهـا؛ زدنـــي.

وأضاف أفلــح:

ـ هــي لـم تمـت إذن.

وقـال أخــر متنهدا:

ـ بل ربمــا ماتــت.

وقـال ثالــث:

ــ وما الفرق؟ الغيـاب موت بدوره.

لحظة القول بكل أعراضها، بكل سهومها بكل ثقلها الحدسي تركب أفلح، لقد توارت كل المرئيات من أمامه، ولفّ حواسه شلل فالتمس عزاءه في حلقة أطفال أخذت تضرب شكلا هندسيا شبه مربع حوله، تلتها حلقات وجوه دفعها الانتشاء بمشاهدة فعل اللحظة، إنها بالونات الزبد قال إنها، قالت:

ثـلاث لا خيـــر فيهـن:

ـ الصفو إذا غـــاب.

ـ الجسم ذا عـــاب.

ـ الحلم إذا خـــــاب.

وأنهك القول أفلح فأخذ يسترجع توازنه دون أن يرفع بصره عن الأرض.

(انغلاق الثـلاثيـة الثـانيـة).

ـ لـم تمـت إنها بداخـل القلعـة.

طمـأن أفـلح نفسـه.

الموكب يكتسح فضلة الحذاء، يبحر الوعي بغير شراع وخطيب القبيلة لا يزال متكئا على عصاه النحاسيـة، يصدر فتـاواه في أصول العفو الوراثـي وتعاريـف الاحتراف، وحارس القلعة الليلي يحرص صبية بعصاه، يتبنى وصية سيدة القلعة، عن ظهر قلب يحفظها، وكبير طائفة ما يقهقـه في تشف، وعلى انفراد يحادث خادمه ذا السمرة الداكنة، كان الخادم وفيـا وللوفـاء مـذاهـب.

ـ كانــت تحبكم يا أطفال.

السواقي لم تعد تلقي بمياهها على عطشى السفوح، وأفلح ينتحب على القارعة، تمتماته تراود آخر الأنفاس، وأصوات مبحوحة تتلقفها عتمة الليل.

ـ ربما خرجت لتحية الموكب على عادتها من يدري؟!

لاحظ حارس مناوب على عجل ودخل حالة طوارئ قصوى، فضحك أفلح ساخرا لأنه يرفض الاقتناع بالرحيل، رحيلها.

الثـلاثيــة الثـالثــة:

وابنة الخـس قالت لصغيرهــا:

ـ ليلة اقتران الخلف والأمام انتصر للذي يليك دون

أن تسأل حادي أي منهما عن وجهتــه،

فهما في نهاية المطاف سيقترنان.

ولأن أصل المناخ ضباب بطبعه، أعدمت وهجها النيازك لتتأبد باسمه قال صغيرها:

ـ ومـا الخلـف ومـا الأمـام يا أمـاه؟

قـالــت:

ـ عرّاف المدينـة أوجب التماهـي في كل شيء يا بنـي.

وعاود الكشف "أفلح" فتمخض عن نطق أفاد فيه أنها قالت:

ـ هـي خير من:

العـائـد بـــــلا زاد

والغارق في الأضـداد

والقانع بالأصـــــفاد.

(انغلقت الثلاثية الثالثة)، فتمدد أفلح في تعـب.

وحضرت نسوة من الضواحي فوجدنه يخط بخيزرانه رسوما مبهمة في شكل شمس غير دائرية خافتة اللمعان، يأسرها ذوبان خريفي نتيجة انقضاء موسم دفء.

وأربك النسوة حارس القلعة وهو يواصل تمطيط أطرافه في صريح تذمر، و"أفلح" قد اعتزل الحديث داخل أزمنة الحديث، لكنه قال للنسوة لما ألحفن عليه بالسؤال:

ـ كانـت أجمـل نسـاء زمانهـا.

أنهى أفلح بدايات الحديث، وعيون القلعـة حيـارى، شاخصة إلى أسفل مجاهـل "الحمـادة ".

ـ مـا فـات ربما فـات.

أكد الخطيب وأبلغ أفلح أن ابنة الخس لن تغادر القلعة أثناء مواسم التمر كعادتها، وحين امتطى الخطيب صهوة جواده كف أفلح عن البكاء وقذفه بنظرة نارية تحمل سرا غير معلن، فاقترب منه الخطيب طالبا إليه ان يزوده ببعض أساطير القلعـة.

الثـلاثيــة الـرابعــة:

ـ أنـا خير من ثلاثـة وثلاثـة وثلاثـة.

وقـال الخطيـب لأفلــح:

ـ فـدنــا.

ففضل أن يتمتم كعادته:" منذ مواسم الجليد الكبرى، والبحر ينجذب للانحسار صوب الأسفل"، حاول أفلح أن يقرأ بعض ما كتب على هامش القول فقال: قيل إنها قالت:

ـ أنا خير ممـن:

رمـى بـه المـــــدّ

وأذلّه الصـــــــدّ

ومـزح بـه الجـــدّ.

(لتقفـل الثلاثيـة الرابعــة).

وأفلح تأخذ تراتيله الخليط لحن النغم الموغل في الاغتراب يمازجها طنين ذباب استأثر بالمكان، الضباب والحصار يلاحقان أنفاس الزهر التي كانت قد أينعت بجوار كهوف القلعة.

ومع ذلك لا تتوارى ملامح القلعة تباعا في نظرأفلح الذي أخذ يتطلع برأسه إلى ما وراء زاوية الجدار المهشّم، وقد انسدل الليل في طواعية قبل نهاية الفصل المثير.

ـ تغزل بمفاتنها مداحو أزمنة الحصاد تباعا.

لم يحدد أفلح من الذي روى ذلك، بل انصرفت عيناه تجاه رجل ما كان ينشئ كلمة سر في حلقة جانبية، فحياه على أنه شيخ قبيلة حزب ما، أو رأس مذهب ناشئ لما تتبلور بعد شعائره.

ـ ولكنها كانت تدين صهيل الحصان الوافد.

يبتلع أفلح بقايا السيجارة هذه المرة في غير تقزز.

الثلاثيــة الخـامســة:

لا ترتحل التخوم إلا لكي تتسع، وربما هاجرت لتضيق، والمدى في نظرابنة الخس استرق جواز الرؤيا ليندلح، سيدة القلعة لم توجه كلامها إلى خيول البحر الآن، بل وضعت مكانها مسميات التحفز نحو العود، قالت ـ كما حدّث أفلح وقد قام احتراما لصاحبة القول ـ:

ـ قالت أنا أفضل ممن:

يقول كلمة ولا يحميهـــا.

ينتج دعوة ولا يفشيهـــا.

يقود("""""") ولا ينهيهـــا.

كانت أعصاب أفلح في حالة ارتجاج قصوى، يتخيل القائمين حوله مجرد أطفال، لأنهم اعتقدوا أنه لا يفيق من غيبوبته إلا بعد انغلاق الثلاثية وها قد انغلقت فيما يبدو.

النسوة يسرن خلف الموكب الذي تبطن الساحة، وبمقدمته علت أهازيج غير منسجمة التناغم، وربما لذلك أغفلها أفلح ليتفرغ كلية لعناق الأطفال، كان يزعم أنه سيلتحق بقبيلته الأم لولا أنها لا تفتقد غيابه إلا أثناء التجديد الموسمي؛ للثقة في شيخها.

ـ ستخرج يوما لتعيد الكل إلى الكل.

ردد أفلح للمرة الألف دون أن يبلغ صدى كلماته سوى مريديه.

الثلاثية السادسة:

فارس البحر يغادر معسكره باتجاه القلعة، أخذ يتقدم وإلى جانبه فارسان، مما جعل أفلح في حالة هيجان، كل الأطفال خافوه في هذه اللحظة فابتعدوا مسافة ما، فارس البحر لا يزال يتقدم في ثقة، فارعا كان على صهوة جواد يستحيل وصفه، إنه يتقدم في خيلاء ذكرت أفلح بفرسان الحروب (المقدسة)، ثم توقف الفرسان الثلاثة لينبري جلواز راجل إلى القول:

ـ سيدي يأمرالأميرة بفتح أبواب القلعة؛ كل أبواب القلعة، وبعدها يفكر في رفع الحصار.

تراجع الفارسان المرافقان ظل فارس البحر في حالة انتظار، وأدهش أفلح انفتاح أحد الأبواب الخلفية الذي غادره جواد بدون فارس، كان قويا غير مروّض كما أخبر السائس وقد علا صوته من فوق الجدار، وفجأة أمر فارس البحر بعقر الجواد و شق بطنه؛ ولما شاهد ما بداخل البطن قذف بسيفه في حنق وقال:

ـ ماهذا؟! يطعمون خيولهم مادة القمح رغم استمرار

حصارنا الطويل للقلعـــــــــــــــــــة؟

ولأول مرة ينشد أفلح مقطع الثلاثية وهو في حالة وعي كامل، دون أن تمتلكه حالة الهيجان:

ـ أنـا خير ممن:

يأمـن غريمــه

يخذل حميمـه

يرهن سريــره

(وانغلقت الثلاثيـة السادسـة)

ولما راى رجل وافد يحترف بعد النظر، الأطفال وهم يتحلقون بأفلح قال:

ـ الأطفال وجبة يقول بشهيتها علماء الطبخ الإستوائي.

ونبـرأفلـح:

ـ فقـدت كل أزواجهـا في حروب الردة.

وقد كان أفلح يضغط على يد طفل كفيف يقف إلى جانبه في صمت، وإلى يمين الطفل انتصب رجلان أحدهما برتبة مستثمر لايزال في طور التربص.

الثـلاثيــة السـابعــة:

لا تعتقد ثانية، فعديم الحيز من الألـواح فقط هو المكرور، أوصت

ابنة الخس صغيرها في حذرقبل أن تقول:

ـ أنـا خير ممن:

لاتفيده تجـــــارب

ولا توريه مراقـــــب

ولا تطوف به مراكب.

و تنغلق الثلاثية في غفلة من أفلح الذي لم يحضر النشيد السابـع.

الثـلاثيــة الثـامنــة:

خيال أفلح يصحر صوب اللامتناهي، يحمل بعدا آخر، والسير ليس حركة أمامية بالضرورة، والزمن في نظره تتأبد خطاه حسب لحاء صخور القلعة، يعاوده الحنين إلى السير، يتكور، يتمدد في غيبوبة واعية، يتداعى، في عبث ميئوس منه يستجمع رميم ولادته الأولى، والقلعة/ المكان في سيرة غير ذاتية ترفض الانتساب إلا لأمسها، ولجدارها الذي يحتفظ بأدق أثار الذكرى؛ ذكرى تشييدها ساعة وصول ابنة الخـس إلى الجنوب، من الجنوب.

وظل أفلح ينظر إلى الباب وقد كان نصف مفتوح، لأنه الباب الـذي شيّع الحصان الرافض للصهيل منذ حين، وأيقن أن كل ما بخارج القلعة مغال في وحشتهن وبجوارها يشتد سناء سراب ينشر وميضه في صمت.

(هـذه ثلاثيـة مفتوحـة)

وحين غادرت ابنة الخس قلعتها في نهاية العام، صـاح أفلـح مشـدوهـا:

ـ هذه ليست هي؛ ليست بابنة الخس التي عرفناها.

وارتجت الحلقة لقول أفلح، إلى أن ربت على كتفيه أحد كتاب السير الشعبية ليقول لــه:

ـ هذه وصيفتها أما هي فقد اختفت ليلة عرسهـا.

و قـال الخطيـب:

ـ قد توجـد حين تزول وقد تزول حين توجـد.

(وتظل الثلاثية في انتظار الآتي)

سعيدة 1999

ابنة الخـس:

1 - داخل الزمان: امرأة من قبيلة إياد واسمها " هند "، من حكيمات العرب فـي الجاهليـة عاشت في جزيرة العرب واشتهرت بالحكمة والجمال والمكانة. إلخ.

2 - خارج الزمان : هلالية اتخذت لها قلاعـا يحالفهـا الخلود في جنوبي المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ ،منـها تلك التي تنسب إليها بمنطقة بريزينـا جنوبي البيض، استقرت ابنة الخس في المخيال الشعبي الجزائري بعمق، وأصبحت أمثالها وحكمها تراثا متناقلا عبر الأجيال الى حد جعل باحثا فرنسيا ولغويا كبيرا هو روني باسي يتساءل في المجلة الآسيوية،عما إذا كان الأمر يعني امراتين اشتهرتا بهذا الاسم أم امرأة واحدة، وكيف ان الأمثال والحكم المنسوبة إلى ابنة الخس الجاهلية باللغة الفصحى نسب ما يماثلها إلى ابنة الخس المغاربية لكن باللغة العامية هذه المرة؟.

في معابـد الصمـت والغيـلان:

1 ـ فصـول من فقـه "الفُتُـوّة":

ركام السنين يتداعى، تتبطنه فجوات عكسية التصويب، ضبابيته الأبدية ينفثها في وهن شيخ أضر به التقاعـد.

الإدلاج الجمعي و رطوبة المناخ تعلن مسبقا عن إخفاق، الوصيد الحديدي يرفض الإنفراج في وجه القادم، داخل السور تتلملم المدينة الثكلى، تتعاطى العشق المبستر تحت أسماء مستعارة أنهكها العود على البدء، وفي المحطات الموغلة في الظلام توزع تذاكر للسبي الليلي وأخرى لعتمة الرقيق بتوقيع مغايرالبصمـات.

ـ الذي اشترى الجدّ جهرة هو الذي يبتاع الحفيد خلسـة.

قال كبير نخاسي المحيط وهو في حالة سباحة قصوى.

" سمراء "ــ حلم الزائرين تحت كل الصفات ــ يشتد بها النحيب خلف وصيد عازل للصـوت، النحيب بديل التهجد. لأن كلاهما يعيد إلى النفس حقيقتها.

" سمراء " ضمادها يلفّ رقبتها، وأنياب غول ـ قيل إنها مدجّنة ـ تخيفها لأنها بحجم المداري الأسطورية، وعراف القبيلة المجاورة لم يكن يتوقع ـ لسفاهة طارئة ـ هجوم الغيلان على بحيرة القرية حيث العذارى يلاعبن تموجات النهر الدافـئ.

" سمراء " تبحلق في مستند الإصابة وكبير بطارقة الرحيل يعلك بندا لاغيا ألحق بالألواح الأثرية سهـوا.

ـ النكوص قاعدة ثابتة في الفلسفة الأم.

لم تتأكد " سمراء " من صاحب المقولة ولكنها أومأت بتدوينها

عاطفة الحنو يقول بمصداقيتها كبير شراح المتون، والدهشة عملة آخذة في الهبوط تحكمها أصول " الفُتُوّة ".

" سمراء " على وسادتها يُبحر زخرف من تهاويل ألوان البحيرات الرافضة للغور، وأمواج راقصة قَدّتُ بعدا ثالثا في منغلق الإيقاع.

ـ المتغيّرلا يطال حيز الطبل الإفريقي.

قال أحد مرافقيهـا.

ـ الطبل تطهير. الطبل عصاب. الطبل اتزان.

قالت " سمراء " قبل أن تجيب فحفظ عنها الأطفال ذلك عن ظهر قلب.

مُصبّر الطحالب يعشوشب دون أن يذاع سر عقاقير التعقيم المهربـة

المدينة الثكلى تنحني في خنوع جاسوس محترف، تتعرّى في جنون، تقذف بيافطات شوارعها. وعلى مدخلها الرسمي أقيم نصب " مومياء " غول عديمة اللقب ذات أنف معقوص.

كبير الشراح قال معترضـا:

ـ الغول لم تنشيء المدينة لكنها ألحقت بحراستها.

ـ الغول كالديناصور سابقة للعمران.

لاحظ أمين سر كبير الشراح.

وقالت " سمراء " وهي لا تزال في منامها:

ـ ولكن من سيقتل الغول إذا عاودت الكرة على فتيات القرية؟

أطفأ السؤال كبرياء القناصين.

ـ وماهي الغول يا جـد؟

مشاتل شوك تينع على المسام، تركب الرؤيا، سوبرمانية بتعاريف مغايرة تقودها غريزة الفتك نحو التربة بالضـرورة.

2 ـ مواسـم الفطـام:

رواد الفجر يهاجرون تباعا، وخلوات التقية
تعلن الكساد، والجد الأخرس يتعاطى تعاريف حديثة لـلون الغول وقابلية أسنانها للنفاذ، وفي بلاد القول ينتهي القول إلى جدلية متكافئة.

ـ ضار بالمدينـة.ملازم لهـا.

وصاحت "سمـراء":

ـ ولكن آثار أنيابها لا تـزال.

وقاطعها عويل متصاعد من ناحية مـا.

خلف أسوار المدينة " بسمراء " يتطاول المكوث، والأخصائي يزرع قلبا مرخصا به في حالات الضرورة القصوى، ومبيدات النبض الصادق تلاحق بقايا الرفض والتمنع، وتحاليل الدم تعرب عن ميكروب وراثي مهرب أكيد العدوى.

ـ الغـول بريـة أم مائيـة؟

ـ الغـول تأكـل.

الغـول في تقانين المدينة عودة خوف؟!

3ـ تراتيـب العشـق في معاجـم الأشانتـي:

تعاريف الخطيئة تتململ تحت نعوت الصبايا. هل النبض إجهاد مزمـــن؟ !

" سمـراء " أنكرت الغول وجودها فبكت، هذه المرة نزولا عند رغبة منجميها أكمل الجد.

ـ الغـول مائيـة أم بر ـ مائية؟

ردد العجوز قبل أن يستسلم للبكم الأبدي.

4 ـ جـوازم الصمــت:

النيازك المسنّة أقلعت عن عادات التوهج من بعيد. وأحيل آخر النجوم الغواصة على الإستيداع لزمن مطلق، في أعقاب سنوات الذكرى ذات يوم عديم السحاب، أعربت " سمراء" عن بسمتها؛ حدادها .. الوراثي إستأنفته، رغم تعدد أزواجها أصيبت بعقدة النشاز، كبار الراسخين أفتوا بطلاقها، وظلت معلّقة تمقت الذي تحبه، وتدعو لمن تكرهـه لا أحد يعرف إلا كبير مسني القرية وقد صار أخرس

قبل أن يفتقد النطق في غمرة الأحاديث. أصبح مولعا بترديد أسماء الغول، قال إنها بترادف أسماء الأسد، في إحدى حالاته الصاخبة قــال:

ـ إن " سمـراء " قد لا تلد.

العارفون " بسمـراء " قالوا إنها لا تحسن الرثاء كثيرا عكس نطقها بفنون الإضافة، ولوصيفتهـا الأشـد سمرة نظرت.

وتمعنت في لون الوصيفة وتساءلت: ربما مالت دكنتها إلى حور الأشانتي (4)، أما هندسة عيونها فقريبة من خصائص فاتنات البوشيمان

(5) وهزّت "سمراء" رأسها في تأكيد لاستنتاجها دون أن تعتزل اكتئابها.

لم يطمئن الجد إلى تخريج الطبيب فالحمل لا يزال لم يقل به كبير حكماء الأرواح الذي سوف لن يركب رأسه في تقرير أمر كهذا، الجد استأنف رحلة الإمعان في سفْر القبيلة وهو سفْر محظورة عوالمه على غير البالغين أزيد من القرن.

في السفْر/ التقية جزم بأن الغول لم تُقم المدينة، وأن المدينة بكل صخورها الحبلى بالطوطم والسحر والإخصاب ـ لا تدين بوجودها لأي زمن معروف؛ خرافية أزمنتها هي الأخرى ربما لأنها لا تخضع إلا لمعاير المشافهة.

ـ " المشافهة " إيحاء وحسب.

قالت " سمراء " في تصميم.

ـ ولكن مدينتنا حملت عصارات الكلام. قبل وقبل.

صوّب الجد مستندا إلى الهامش المائة من سفْر المدينة، وترءى له لأول مرة أن عقارب الساعة العامة لم تعد تعشق لعبة الإرتداد كسابق أوانها، فأذاع في المحيطين به أن " سمراء " تماثلت للشفاء وإن لم تغادر فراشها.

1و2 البوشيمان والاشانتي من أشهر القبائل الافريقية ..

سعيدة 1995

معجـم الجـدف عبر براكيـن التنـاهـي

الرحلـة الأولـى:

هو ذا بالحرف الواحد ما أكده الملحق المدني المنتدب، الأمسية أمسية سبت والموقع خارج ملهاة المدينة، وشلال إصطناعي يرسم في إعتياديات مشوقة علامات ضوئية تتلون بلون إيقاعات موسيقية تنبعث من أعماق الماء.

نسيمات مسائية مرخص لها بالعبور ليلا تسابق حظر التجول المعلن طبيعيا في هذه المدينة، صدرعار تلامسه، توقّع عليه ملاطفات غزلية شيقة.

قوافل الضباب تصحر تباعا، وتباعا صغار الموج تسترق إغفاءة القمر في وجوم، مراكب خشبية تتحفز للإقلاع، بعنف يتطاير الرذاذ غاضبا، في توثب يعانق عجائز الصخر المجبولة على تذوق البلل، والعابر يمتص بقايا أمل، قشعريرة حادة تعتريه، يستلقي في غيرإجفال، وعلى طباخ المطعم الشعبي يقص تفاصيل رؤياه.

أنصت الطباخ في مبالاة، تسمّع، تمكن منه طعم الحديث، ناوله خبزا مسمّنا وكوب ماء، تمعن (العابر)، ألقى بكوب الماء بعيدا في غير ما غضب، أرجأ الطباخ أشغاله بل تمدد بجانب (العابر)، تفحصه، انتظر تفاصيل الرؤيا، في اشفاق أبوي في رفق ربّت على كتفيه رجل ذو لحية ثلجية الخصلات، كان يحمل مظهر الزائر المحترف، وفي صوت الرعد هامسه:

ـ لا وجود إلا للموجود.

ورددها العابر في تأكيد وهو يستمر في ألعابه، يعاود قضم الخبز، يطلب ماء يتكيء، وعصابة من بائعي السمك المتجمد تضرب عن الانتماء إلى الأنهار الثلاثة، تتقي الاتهام بممارسة السباحة ليلا.

بالصدر العاري الذي تلامسه نسيمات مسائية، يمور دبيب حلزوني التيار، وإرهاص انتعاشة يختلس مقدمات للتأقلم، البخار يرسم أغلالا غير متناهية من علامات الإستفهام، في ضجر يتثاءب الفرات مثقلا لا يزال بغبار الوافدين الجدد، يتعثر خرير النيل ثانية على وقع خيول ما، وفي طبرية يصير السمك هجينا:

ـ الفرات، النيل، طبرية، هل زرتها في منامك؟

ـ بل هي التي تزورني في منامي.

الرحلة الثانية:

" لوسي " لأمر أكّده السفير تحت العادة بكل إصرار، تقلع عن بسمتها المعتادة منذ الصبيحة، تمارس الكأبة في جنون، تذمرا وافدا تتصيده لسبب حاول السفير أن ينفذ إليه لكن في حلقها ـ كما أضاف ـ تتحلّب أعراض العادة، وزرقة عينيها متأوهة سابحة في اللامتناهي قبيل لحظة الإضراب الأبدي.

" لوسي " انتمت بما فيه الكفاية إلى إحدى مدارس الجنس العالمية، وحين يشتد وجيبها لغرض ما فقط تزم شفتيها، تبتلع العباب،

قيل ـ وهذا أمرأغفله المنتدب المؤقت لتعلة ما ـ إنها ترقص على الشاطئ مساء في حفل تحجز فيه الكاميرات حصرا، لأنها من بيوتات المدينة.

كعذارى الأنهار في الأساطير، كجدول يعبث به شاطئ منفرد، كأفكار معلبة في جمجمة مهربة، بارزة عناوينها، صورها كاريكاتورية و أشياؤها قابلة للوداع، في إحدى أماسي عام الجدب أقلعت " لوسي " في إتجاه ما، ولاحظ شهود عيان أنها لا تزال تزم شفتيها.

ـ وبعد أيها (العارف) وبعد؟!

صاح العابر في توتر وازدرد رغيفا ملقى بعيدا منه، وألحّ في إحضار كوب من ماء طبرية.

مفرقعات سلمية تخللت الحفل غير المعلن عنه، العتمة تتقولب، و(العابر) يتشرّب نغما موسيقيا ملقّحا بذبذبات شبه جنائزية، تقارب الأزيز، في خلوته نشب الصدام.

ـ بين من و من؟!

تساءل العابر صادقا.

ـ بين " لوسي" و" جين ".

ـ جين؟!

ـ عذراء أحد النهرين.

ـ أحد النهرين؟!

تمطط العابر تفل، تناول الكوب، خاطب العارف والخبز يملأ فاه،

فكر العابر في مغادرة المقهى قبل ساعات الاستقبال الأولى، تراجع غضبه، أنصت في صمت، راهب مفوض وفد مؤخرا لاستئناف التبشير، يبيح مواصلة الرقص، يضع قبلة محمومة على عنق ما تبركا بشقرته، فتقرع تقرع الأجراس بعنف إيذانا بنزول السكينة.

" لوسي " تتأبط جوازا مستعارا وعلبة فاخرة لبوليس المطار و وسائل للزينة محظورا بيعها و منديلا للرقص مطرز الحواشي، دورتها ناصفت العالم ومن بعيد كانت تعلن المجئ، تقرر الرقص منفردة، والبحّار لا يزال يخطب في جمع مهمّش، والتهميش تقعيد بدائي ابتدعه لغوي مسن مات بالفالج قبل إختراع البحر السادس عشر، حين ترامى النبأ إلى أسماعه ترجّل عن زورقه لينزلق إلى فوهة الغواصة في ميناء مأجور مذ نكبة الفينيقيين الثالثة.

كبير المنظّرين قاطع الحفل، وصف التاريخ على أنه حرب غير دائرية لكنها ذات مقبض، التاريخ مدونة أنساق لمترادفات البطولة، موسم القنص المحظور عادة يستمر، وتواشيح السلام تجوب الشوارع، ورواد المحبة يضفون ما أمكن على بطون مكعبة أقصى آيات الطهر أمام الأضواء.

في أثواب متنكرة في زي رجل، قيل إن فتاة ممن شربن من مياه النهر الثالث دخلت المدينة ليلا، وليلا رفضت مغادرتها، امتنعت عن أي تصريح.

الرحلــة الثـالثــة:

الأجراس ترن، الخيوط تمتهن توصيل اللغط المؤشر عليه، و العابر يحاول تأويل رؤياه بواسطة (الكمبيوتر) هذه المرة.

ـ الأرض كروية كالبطن تماما، الأرض بطن إذن.

تضاحك العارف وهو يسبل جفونه فأجفل العابر، الزفرات المحمومة تتبطن تلافيفه دون أن تذعن لأمر التلاشي المعلن على أمواج الأثير من محطة ما، لمته يتسارع إهتزازها ويركب الصوت سكون.

الممارسة الباطنية تحظر الحنين، والعشق الحازمي يأخذ شكل المجون المركّب.

ـ لم تعد هناك علامات!

أفرغ العابـر بقايا نزعه، الراهب المفوض يحضر المحاكمة، يقبع العابر قرب باب موصد، ولوسي تعاود رفض البسمة، والبحّار يقاطع الموج أحاديثه، وقاضي القضاة في محكمة أممية يحاكم غلاما في الثانية عشرة بدعوى خوفه من أزيز طائرة حربية.

رغم صخب الأجراس، فرقة الجاز المأجورة تقلع عن مواصلة العزف لأسباب أمنية، الراهب يقرر رفع دعوى، ويدمن قاض/ درجة ثالثة / على توقيع أحكام احتياطية، العابر تلعثم في وجه لوسـي.

ـ مـن أنــت؟!

ـ مرشحة للإبحـار.

وعرّفت لوسـي بنفسهـا:

أوقفت رجة الرقص بإماءة ما، تجنّح السمع، انتظر الكل،

ومارست (لوسي) بسمتها في حياد هذه المرة، العابر لاحظ في دهشة، وقد كان خارج المشهد:

ـ كل الأشياء الجميلة أتلفها النهـر.

ـ انجراف كلـي هـو النهـر.

قال، ويقـول:

ـ أحواز النخيل والخضرة طمرهـا.

قال، ويقـول:

ـ مواسم الانجراف تتأبّد.

كان قد غادر المقهى مذ لا يدري (العابر)، وفي كل آونة يرتاد المقهى أحد الزبائن ليتلقف كلمات أو أنصاف كلمات من أحاديثه التي يهمه فيها أنها لا تنشد سامعا على الإطلاق.

ـ لوسي نهر لا يجتازه راجل ولا راكب.

وأكدت (لوسي) للعابر أن الإبحار الفنيقي لا يزال قائما رغم موجات الانحسار الثلاث، وتنهدت (جين) منصرفة:

ـ لا يـــزال.

وتحرك (العابر) في أثر (لوسي) مرددا في نصف ابتسام:

ـ ربما ربما.

من تحت حاجبيه الكثين ابتسم وأوصى بإستئناف الحديث بعد يقظته من مغص نوم ألم بأطرافه، اعتزل الحديث، تخندق في جلبابه المهتريء، ثم أومأ بسبابته في اتجاه القمر، في منامه استرجع وقائع رؤياه.

الرحلة الرابعة:

حدّثه العارف عن تقاطع النهرين في زمن الغفوة، و خصائص ريح الشمال، والثلوج الملونة في أعقاب الخريف، وضفاف النهر الثالث الكاتم للسيلان، وجدائل الفتاة الصامتة في جوف التيار الدافئ، العارف في رحلته اصطحبه سارا حافيين، قطعا وهادا و تلالا، احتملا سريرين لامعين وأغطية من حرير وجرة ماء بارد وطيبا ودواة ، تسلقا تلالا حجرية متراصة، اخترقا أدغالا متعانقة، و سلخا لياليّ مقمرة، و استلذا نشوة الخبب في غبش الفجر المطل، ودفء الشمس بعيد الإشراق.

وتقدم العابر ليسأل العارف عن النهرين وزمن وثبة النهر الثالث، إلا أنه رمق لونه وقد امتقع، وحين هم العابر بالعودة انزعج العارف، وبحث في صرّة الزاد عن تبّان للسباحة وقد حمأ ماء الجرّة، و تقوّس السريران واعتلى الصداء سبائكهما الفضيــة اللامعة.

واستحال الطيب صديدا عفنا، وأقال الليل القمر وأدلهمّ الإشراق، افترش الرجلان السعف الذاوي والرمل الحارق ودقيق الحجارة، وعاود العابر تنهده المكتوم.

ـ والنهـــران؟!

بزوايا محياه عسكر العياء وفارقت الدندنة شفتيه، وامتص الحصى خشخشة نعليه ونزفت قدماه، وأنهت (لوسي) وشوشتها و شاكسته في حنق، وتمتم العابـر.

ـ والواديــان؟!

وأشار العارف بيده:

ـ في منتهى المغيب يترأى أولهما!

وعدا عدوا خفيفا، التفت إلى (العابر).

ـ خلفهما تقع البداية.

ـ وتنتهي الرحلـة؟!

ـ بل تبدأ يا صغيري.

تخلّص العابر من بقايا زاده، وتلثّم بذؤابة عمامته المندثرة رسومها، وقذف بإحدى نعليه في إتجاه مجهول، وأنكرعلى العارف سراه، وتحت نهايات الظلال استلقى، إلى أن اعتلى شخيره طنين الذباب الصاخب، وجففت (لوسي) عرق جبينها في رفق، فندت عن العابر

صيحة كالخور، وغطّ فامتعضت بين يديه، وقدّمت له طيبا ليتقبله نائما فاعتذر.

أقلع العابر خلف العارف غير أنه أفتقد أثره، وهاجمه إعصار دائري وأنواء متفرقة، واختطفت زوبعة مركّزة بقايا عمامته، وابتلعت آخر نعليه أمعاء الوحل، سقط، حاول، تداعى، تحلّق به صفير رياح مجنونة، تكوّم انتصب مرتجفا، شدّه حنين إلى سابق خطاه، تطلّع، تماسك، على سمعه انهال هدير طوفانـي مخيف، أيقن أنه الوادي وقد اقترب غاضبا، تدافعت أمواج في ضخامة أطواد عائمة، وتناغت شلالات خرساء في تموّج، وكتمت اللجة أنفاس الشجر المخضّر.

الضفة الأخرى تتراءى بصعوبة، والسيل يرطم نهايات الانجراف الممتد، والغدير العكر يراود أكاما في ارتفاع // الهمالايـا //

ـ أيهـا العـارف!

صاح العابر بقبضة صوته تحرّك، ربضت (لوسي) على صدره، كانت سيارتها الفارهة قد استحالت زورقا زجاجيا عاتما في يسر توارت، اجتذبته المشاهدة، اعتزم اجتياز النهر، تمتم ثانية.

ـ انتحار!

أحجم انتفض، اقتلع عكازا من شجرة ذاوية، اقترب، عكست صفحة الماء مشهده عاريا؛ تماما عاريا، تبللت رجلاه أحس ببرودة جليدية، تقدّم ماسكا بالعكاز، ركبتْه رعشة مباغتة، أقلع عن النظر إلى أدنى الشلالات الهائجة، خطاه متقاربة، عيناه زائغتان، ظهره مقوس إلى الأمام، دنا من غرغرة اللجة تأبّطه السيل، شهق، أعزل كان بدون عكـاز، تلقّفه التيار صاح، تكوّر اختفـى.

أيقن أن للماء ظلوماته الخاصة ولونه وألعابه وزواحفه السامة و رغاءه الصامت، (لوسي) ببذلة السباحة، من داخل السيارة تبدو له بين الحين والحين تتأنى، تزم شفتيها.

بجواره ترسل بسمات طفولية كلما أحدث جسده صداما موجعا بصخرة أو بجذع شجرة، أو ملامس حية مائية راكدة، أو تلّة حصى مؤتلف حين تجترّه منعطفات الوادي في عنف، كانت تصدر عنه نصف غمغمة مختـنقة، وصيحة إرتدادية مكتومـة.

"" تلفعن "" الوادي، وانغرزت سوق السيل في كبد الجزر المنهوكة؛ وفي إحدى الأماسي الحالكة لفظ التناهي جثة العابر معفّرة بالطمي وركام الطحلب، فارتمت ساكنة على سفوح دغل سفلي، حيث تنتظر صبية الحيتان، وصغار الأفاعـي، وبذور ضفدعية، وماء موحل ونزيف وغثيان ودموع مترددة، عندها تشرّب الوادي أصداء قهقهات (لوسي).

الرحلـة الخامســة:

بيده مسح العارف على جبين الجثّة الهامدة، فأبادت نظراته دبيب الحشرات، واستردّ العابر بعض وعيه، وتشبثت يداه المرتجفتان بلحية العارف منساقتين تلقاء الدفـء.

ـ أيـن نحـن الأن؟!

وبقوة زفر العارف وبصره يمشط بقية الطريق:

ـ بين النهرين، في أسفل أحدهما.

ـ و(لـوســي)؟!

ـ ربما تجاوزنا مضاربها الآن.

ـ هو العـدم إذن؟!

وقهقـه العارف دون أن ينصت.

عاريـا ظل العابر معفّرا بالطين، يذكر عصاه وعمامتـه، متخلّف زاده، قلنسوتـه والطيب المبستر والسرير الأحدب، وبين أنامل العارف تراءت له الدواة، فتوامضت بسمته في تعب، واندفع نحوها متسائـلا:

ـ ألـم يتلفهـا الـوادي يا سيدي؟!

تأبط العارف عصاه، وأخفى الدواة بثنايا مئزره، وقام واقفا وهو يقول:

ـ لنرحـل يا صغيـري.

ـ إلـى أيــن أيضا؟!

ـ نحـو الـوادي.

وأجهـش العابر ضارعا إليه:

ـ بل علينا أن نمكث بين النهرين يا أبتـاه؟!

ـ وإذن سيذيـبنا التياران؛ نتبخر يا صغيري.

خلف العارف انطلق العابر في عدو مثقل، متوجسا ضياع أثر دليله كسابق مرة، كان فاصل النهرين متجمدا، تتزحلق على أديمه الأرجل، وهواؤه جافا شبه موبوء برائحة التخثّر، عديم الجاذبية، تغشاه رطوبة، قاحلا مخيفا؛ ومن بين أطواد ضبابية دكناء برز جدار جبلي مرصوص هرمي الواجهة، يحمل يافطة نحاسية كتب عليها (جيـن).

انتصب العابر منبهرا، يحملق في معمار الجدار الذي تسوره العارف في يسر، شامخا كان مهشم الحجارة، وفي جحوره رؤوس حيات مدّببة تصطك ألسنتها بالتناوب.

اقشعّر بدنه التفت، أشار عليه العارف بالتقدم، تأوّه، بمحاذاة الجدار أوغل في السير، إلى أن لفّته أخيلة الغروب، وخلف محدودبات القمم العليا توارى العارف مسرعا، تحفّظ خطو العابر، ومن وراء التلال الوافدة عاود الهدير غضبته الموسمية، لأحاديث الغدران الغاضبة إرتاع العابر، تراجع، أصاخ، رواسي الجلاميد تتزحزح وأعتق المرتفعات تتفقّع تذوب بدورها؛ وثعبان مائي بزاوية دغل يتلمظ، وشجرة عجوز تنهار طواعية، عدا العابر بعيدا عن دغل الثعبان، تحسّس نبض التيار الدافق ، إقتلع عصا ذات لحاء كثيف، تدلّى بإتجاه بركة مهمشة، تقدّم، شيعته الضفة الأولى في إنشاده، ساد ظلام، توحّش المكان، تكوّم الزبد خلفه، أمامه، علا صخب الماء، أقال السيل شجرة فارعة خضراء الأفانين، وانهدّ كهف ترابي بالضاحية فانبعثت منه صرخات مدوية.

ـ أيها العـارف؟!

ـ جيـن، يا أميرة النهر؟!

لا أحد هناك سقط العابر، تناوشته المياه، بعيدا حملته، تبطّن متنها، أخفاه المغيب، لازمته صورة (جين) بشفتيها المزمومتين، بشعرها العائم، بأطرافها التي تعاكس اصفرار الغدير، تلونت دائرة الوهج، استحال ثغر (جين) المزموم فكي ثعبان مفتوحين يرشحان بمادة رمادية لزجة، في هروبية فطريـة أغمض العابـر عينيه، فاجأته النهشـة، ترنّح، أناة موجعة صدرت عنه، خاطب بها السيل الهائج، إفتقده الزمن، ابتسمت (جين).

في رحلته اختزل العابر ملايين الأميال المهملة، وارتطم بصهوة سلحفاة نائمة، وطارده جندل ضخم نخر السيل مجلسه، إلى حلقة استعراضية قذف الوادي بالعابر، في نهم فطري كانت ثعابين المسارب الخلفية تمتصّ أذيال بعضها، تراءت له ظهورها موشمّة بأرقام شبه تسلسلية متناسقة اللون كفرق كرة القدم.

حاول أن يكبح اندفاعه، كان التيار الخلفي أقوى، وأبواق الشلال تعزف أناشيد الموسم، وأذناه تستقبلان ألحانا موفدة من وراء المنعرج، الثعابين لا تحدث خشخشات مخيفة كدأبها فقط تتلمظ الغدير في استرخاء، وأقربها إلى العابر يكشّر عن أنياب في منتهى الدقة؛ تفرز سائلا متخثرا.

واعتقد العابر أنها حين تتلوّى في عنف إنما لتبارك مجيئه كضيف استعراض، وما أن تدنّى به الغور إلى محاذاة بعضها، حتى نهشه أكبرها على عجل وكان لا يقوى على الزحف، فما كان من بقية الثعابين إلا أن قرقعت أنيابها ربما شوقا لجسده، زاحمه السيل وسهوا أفسح له الطريق ضفدع هرم لسبب يجهله.

براقع سود تلوّن جسم العابر وقد انكبّ على ظهره تدفعه المياه الملوّثة نحوغابة شوك مورقة.

ـ أشجار الشوك أيضا باسقات بهذا الحجم؟!

تساءل العابر في نفسه، كان منظرها مفزعا، وتذكر أسماله التي قذف بها خلف الوادي الأول، لسوف يصادم جسده سفافيد الشوك المشهرّة في قوة، إنها كالحراب تصارع السيل في صلابة، فجأة تصدرت أشجار الشوك شجرة فارعة بيضاء الأوراق، وكلما اقترب منها العابر محمولا على التيار المائي المتواني، أخذت تتشكل في صور ومظاهر أخرى، يا للعجب إنه العارف وقد انغرزت قدماه في اللجة والماء ينصرف من بين يديه! و قريبا من العارف قال العابر:

ـ زل براقع جسمي يـا أبتـاه!

ـ لا حيلة في إزالتها يا صغيري!

ـ سأمـوت إذن؟!

ـ قد تحيا أيها العابر.

استرد العابر أنفاسه وهو يتعثر، وسار متأرجحا يتقدمه العارف، وخلف غابة الشوك رأى العابر (لوسـي) تستحم بإحدى برك النهر المتناهـي وتعربد بألفاظ مبهمة، لا تفقه، وبعد مسيرة يوم قائض أومأ إليه العارف:

ـ هنا يلتقي النهران يا صغيري؟!

ـ يلتقيــان؟!

ـ أجل يلتقيـان.

ـ على تباينهمـا؟!

ـ على تباينهمـا يا صديقي.

العابر يشلّ خطاه إعياء، يدقّق النظر في الآتي، والآتي لا يستقر على صورة ما، ومن خلف تل صخري أخذت تطالعه قمة حلزونية محاذية شبيهة بصومعة يمر بأسفلها نهر هاديء السيلان، فقال له العارف بشأنــه:

ـ ماؤه غير موسمي؛ ويبيد الحشرات

تلقائيا أيها العابر

نصح العارف الذي تناول بضع جرعـات من جانب النهـر الثالث، وأخـذ يهرول أمـام العابر في جــذل لسبب مـا.

ومن نافذة القمة الحلزونية الشبيهة بالصومعة تدلّى شعر فتاة ذات ملامح آسيوية، أخذت ترسل بسماتها تباعا، وتلوّح بيديها في اتجاه النهر المتوثب.

ـ من تكون يا أبتاه؟!

ـ لعلها عذراء النهر الثالث يا صغيري.

وعوض أن يبتسم كما توقع العارف، عكست ملامح العابر ثقل إرتباك، استيقظ العابر من نومه على قهقهة الطباخ، فانقطع شريط الرؤيا ودنا منه ليقصّ عليه تفاصيلهـــــــــــا.

مدينة خركوف ـ أوكرانيا ـ في صيف 1981

أبنية الإشهــاد فــي أرخبيــل الجــرح:

على تخريجات رمزية تترنح شفتاك الإبراقيتان، مبكرا التمست حق اللجوء في علم الإشارة البيداغوجي، عن رسم السالم من الأسماء قاصرا صرت، لأنك أزدرتها غير ناضجة أيام الحفظ الأبيض، مهشمة لعقتها، متحجرة اللحن، نابية المخارج.

تعلّمنا أوائل الأسماء المصلوبة على أثداء الصفحات، وآخر الأناشيد المحفورة بزوايا الذاكرات الفاقدة للارتجاع، طفل أنت يهدهدك الحفظ ويسكنك التهجي.

ـ سكـــوت.

تنذرني عيناك الزائغتان في سفح صلعتك الوراثية اللامعة، آه. عمن تحدثني وقد نفذ الكراس؟ لمن تحيلني وقد ترهّل الخلد؟ وتزاوج الصوب؟

ـ درس الجغرافيــا.

تفرست ثانية في وجوه الصف العابث بالإنصات، أعدت قولك، أعدت العنوان منطوقا.

ـ الجغـرافيــا، و

فكرت في إلغاء عنوان الدرس، صنفت ظروف المكان في سرك، لأيهما الغلبة ظرف الزمان أم ظرف؟ ثانية فكرت في إلغاء الدرس، و حين استظهرت الخريطة خيل إليك أنها ليست مكانية صرفة، شخصت أصابعك الدقيقة صورة ما، عاودك ذهني الإبحار، ثم تراجعت عن نطق الجغرافيا لأنك كنت تسميها مواقع الصدام.

ـ درس التـاريــخ.

كتبت العنوان، تأملته، لاحقك النص؛ التاريخ و،

والتاريخ كما تعرفه يا استاذ نص/نص أزمنة تتداعى رُكّبت على عجل، تتداعى ـ في نظرك ـ نحوإقرارالغلبة والاحتجاج لها، لكن من أين أنطلق؟ وإلى أين سينتهي؟، هل دخولك قبل حين إلى القسم، تاريخ أم في مدار الدرس أشركتنا، فتجاوزت أصواتنا اندفاعك ونحن زمن خام؟، نعدد:

ـ هيـرودوت.

ـ ابن خلــدون.

ـ تـوينبـــي.

تمحو العنوان، ولم تقر أحدا على رأيـه لأنك فعلا لا تدري، في عصبيـة، وفي عصبية تستبدلــه.

ـ درس الأدب

تمتم الذي بجانبـي:

ـ في بكـائيـات الطرب.

توقف، أنا لا أبكي إلا بدموع الضحـك، طيب.

ـ أنـا والبكــاء.

ثانية وثالثة أصغت العنوان، قاطعك الطفل:

ـ أنـا فعـلا لا أبكـي.

فزجرت الطفل، تأبطت سوطك المطاطي، قارعت الحجة بالإحتجاج.

ـ قفا نبـك.

اندهش الأطفـال، أضفـت في ثقـة:

ـ أمر ديواني بفعليـن متلازمـي الالـزام،

رفض للبكاء في حالة سير، لأن من طقوس البكاء الوقوف.

ـ الحركة لا تنتج بكاء لأنها

ـ أكمـل أكمـل.

ـ أستـاذ أستـاذ أنا أنا.

ـ لأنهـا حركـة.

ـ خطـــأ.

وزفرت بملء منخـريـك:

ـ لأنهـا صارفـة للتركيـز يا أحمق، فهي تعيق حركة الدمع.

وسألك طفـل في وداعة أو دهـاء:

ـ المنزل أدب أم جغرافيـا يا أستـاذ؟

ـ أستـاذ أستـاذ أستـاذ.

وأذنت للجميع بالإجابـة دفعة واحـدة:

ـ جغرافيا ـ تاريخ ـ فلسفة ـ قانون ـ إقتصاد ـ سلاح كيمياوي.

ولـجّ صوتـك المبحوث:

ـ كفــى كفــى.

سكـتّ، دنوت منـا ثم سألـت:

ـ والبكـاء؟!

ـ أكمـل، أنت أنت.

ـ سياسـة ـ فلـك.

ـ استجداء.

ـ أستـاذ، البكاء فعل إرادي.

ـ معتقل بعلتـه أحسنت.

ـ البكـاء موقـف.

ارتديت ملاءتك، اعتصرت طبشورا أبيض بين اصابعك، ثم صعدت إلى المنضدة وقلت:

ـ درس تطبيقــي.

ورّج الصف خلفك فالتفت في صمت، لتتنازل الوشوشـة، صفقت بيديك في حركة غير آمــرة.

ـ "نير" من عصافيـر الموسم أكمـل؟

ـ نيــرون.

يقطب صاحبي، تعتصرني نظراته المهربة، أفزع بدوري، أسألـه

ـ مـن نيـرون؟ :

ـ مصلـح أو سفـاح لا فـرق.

في حيرة فطرية رموشك تتسابق، تعلن إيحاء عديم البعد، أناملك الفظة تشخّص لعبا طالما أغرتنا نحن الأطفال، تتعشّق البداهة يا أستاذ نص ـ نص، وتبتدع ظلال الكلمات، ترصد تواشيح الرسم المهملة، وأنصاف الأجوبة عندك تلفها غمغمة مولدة قسرية، تضع أمام أسماء الأعلام إشارات بارزة.

ـ "الحيـاة مـوت" أكمل بمجهـور الأحرف.

تأتأتك التصاعدية تلحق بطائفة من الأحرف أضرارا متدانية الخطورة، و النافذ من نظراتك يفرز إماءات تخيفنا، تدعو أحد الأطفال إليك، تمسك على خده بمقراض سبابتك و إبهامك كشيخ كُتاب قديم، تأمره بالوقوف على رجل واحدة، يرفع يديه في مواجهة الجدار، تعاين رسومنا على المناضد تباعا، تطرق نخشاك، بالشخوص إلى أعلى تأمرني:

ـ فيـم تُـتمتـــم؟

افتقدت لساني، تصفعني أبكي بدموع فرح، تقول لي جادا:

ـ أكتب كلمة بكـاء مائة مرة بانتظام.

وأضفت في غضب:

ـ وأنت مغمض العينين !

وسألتـك:

ـ والمنــزل؟

ـ حسبـك البكـاء.

ـ البكـاء الإرادي أم؟

ـ همــا مـعــا.

قذفتك بكومة من الورق المحبر فطأطأت رأسك في مراوغة صرت تتقنها، لكنك قفزت ثم استعدت توازنك، وثانية جللّك الوقار، اعتقدت أن العقوبة المعلنة تكفي.

ـ "العـ" جريح بالوراثة منذ أيام الصمت.

وحاصرتك الأصابع من زوايا القسم، ـل لأن السؤال من السهل غير الممتنع؟ لا تدري، انتظرت ثم وكعادتك أذنت للإجابات دفعة واحدة ربحا للوقت، كمن يتلقى التعازي في زمن خوف، والواقع أنك كنت عكس كبير نظّار المدرسة المجاز من مشيخة الحلقة، الذي لا يُلقي غير درس واحد طوال الموسم، ثم يتصرف كما لو كان وقورا.

ـ العدو.العدّاد. العدد.العدس.

في غرابة تدنو من أحدنا وتسأله:

ـ كيف يكون العدّاد جريحا بالوراثة؟ إشرح.

ـ العدّاد يجرح بدوره يا سيدي، أعني عدّاد الماءوالكهرباء والغاز ووو، من هنا بكاء المنزل.

وقلت لي:

ـ جوابك أخرجك عن طور الأدب يا فتى.

ايقظتك دقات الجرس فاستأنفت الزمن، هاجم الأطفال شرفات النوافذ المطلة، أعلنت الهدنة، غادرت المنضدة نحو سيجارة ستسارع الى اشعالها بالساحة، حيتك أستاذة الأشكال المكعبة التي لم تسعل بدورها كما توقعت، وخارج القسم افزعك الدوي:

ـ أستاذ نص ـ نص

ـ أستاذ نص ـ نص

ـ نـص ـ نـص ـ نـص

ـ نـص ـ نـــــــــص.

صـاح بك الأطفال كما لو أنك عنوان أغنية مفضلة لديهم كلما وقعت عيونهم عليك، هكـذا أنت، أضربت عن الالتفات، عن دائرة الصياح انفصلت، وتلقفتك حلقة نظرائك هناك وكان أحدهم قد اتهمك بتعليل البكاء، والإساءة إلى الدمع البشري، محتجا بأن أصل البكـاء في حقيقتـه أمـر خارجي.

ـ "السو" من مراحل العمرعند أكثر البشر، أكمـل.

تتراجع الأصابع، تندفع.

ـ السـوق. السـود. السـور. السـوط.

ـ كفـــى.

ارتج القسم لصوتك، الطبشور يتساقط قريبا مني، أنتفض أرسم كوبا مبتور القاعدة، أهـامـس صـاحبــي، ثم أجيب:

ـ لعلـه السولجــان.

ـ هو لا يعني أكثر البشـر.

ـ أه نعـم صدقـت.

وكـأن الـذي يلينـا مـن الخلـف لا يـزال يرتجـف، يتلعثـم تنثـني سبابتـه فــي وهــن.

شكلك يبدو لي الآن غير موح، هديرك أقل من أن يرجف أحدا، ذكاؤك يتضور، نظراتك تحيل محظورا ما على السكينة، مولع بأنصاف

الكلمات يا استاذ النـص / نـص، تفرك مقلتيـك، يترنح السؤال بين الصورة والمثال، وأمعنت فينا النظر كما لوأنك تجس معلوماتنا فأتعبك الكشف، ثم استرددت أصول الأجوبة من جديـد، كنا نعرف أن الكلمات الخـدّج تستهويـك، وسكتّ إلى أن اعتقدنا أنك لن تصيح فينا، ثم جاءت زمجرتك:

ـ والعـدس! هل هو جريـح بدوره؟

لا نـدري هل قهقهـت حين قلتها أم قطبـت يا معلمي، فكلاهما عندك سيان يتسع لحملهما زمن واحد، لحظـة واحـدة، هل أنت بصدد شتمنا؟ أرجوك لا تطعن أسماعنا بما نكره، التفت أختطف الكلم بشفتي (الـ ع د س) وكدت أقفز لأقول لأستــاذي:

ـ لا تستهن بالعدس فقد صار سعر

جارحا بدوره.

دائم الإبتهال لكي نفهم والفهم ممتنع وغير متاح، يرفض قطع الإعراب المقررة، ومحاولات التأويل، هكذا أنت و ميد النظار تمجان ما نأخذه عن غيركما؛ العميد قال لك انه يضيق بغير ما في نفسه، فكل ما خارجها غلط، هكذا قـال، وفي الامتحان لايريد منا إلا رد بضاعته بعينها، لأنه لافائدة خارجها في نظره.

تأملتني يا استاذ نص/ نص، أوجسني السؤال، اقتربت مني تصفحت كراسي فطالعك وشم جانبي أخذت تزايله الخضرة، ورسوم غامضة الألوان تجسد بحرا وغرقى وحريقا، وقطعا هائجة تحمل التقاطع النازي، وكان بجانب رسوماتي الطفولية صورة امرأة تحمل بعدا ما، ركبتك الحيرة فيما يبدو حين لحظتها، لم تستأذني في أخذها من بين الرسوم، بل انصرفت تحملها نحو المنضدة الأمامية، ثم أشهرت الصورة في وجوهنـا وقلــت:

ـ من يعرف صاحبة هذه الصـورة؟

الأنظار تركزت على الصورة ولكن الأصابع لم تسنبل كعهدها، وخشيت أن يُوجه إلى السؤال، ولكنك لم توجهه إلى ولم تستثنني منـه، و اخترق القسم صوت ما قادم من الخلف:

ـ جـان دارك يا سيـدي.

وقلت للـذي نطق:

ـــ وهل تعرف كل هذا الاسم الكبير؟! حدثني عنه إذن.

وحدثك بما يبدو أنه أغضبك، ولكن السؤال ظل مطروحا.

ـــ الموناليزا.

قال أخر وحيّيّت إطلاعه دون أن تقره على الإجابة.

ـ إيفـا بـراون زوجة هتلر؟

جنون اللفظ استأنفك فجاوزت خطواتك مقعدي، في احتشام ما أعدت الصورة إلى سابق وضعها بين رسوماتـي في انتظام، أدمـت النظـر هذه المرة إلى جداريات الحائط يلفك الصمـت، قلـت:

ـ "الثـو" من وسائل غزو الشمس (أكمل).

وتلقائيا تلقيت أجوبتنـــا:

ـ الثـور. الثـوم. الثـوب. الثـو.

للصفعة يثور قفا جاري، الصيحة تلاحق صفوفا شبه منتبهة، خام الدمع ينقذف في سخاء هذه المرة من عيون صغيرات الأحجام؛ دموع فـرح.

خوف تزرعه عيناك، تكبته شفتاك، والباب يعلن إماءة ما، ثالثة قهقهت كالمعتوه، ثم قلت لنا في رأفة:

ـ لا أفهم كيف يكون الثور من وسائل غزو الشمس؟!

ـ الثور يحمل الأرض على قرنـه.

قال تلميذ يجلس بعيدا عن مقعدي، وهتف الذي خلفي:

ـ لذلك نسمي مائة عام قرنا يا أستـاذي، من.قرن الثور !

تساقطت قطع الطبشـور على وجوهنا متناثرة، كنت تحسن التصويب الداخلي بكلتا يديك يـا أستاذ ـ نص ـ نص، وسألتنـــي:

ـ والثـوم ما خطبـه؟

وانتحلت مقولة العدس فقلـتُ:

ـ لعله أحد أطعمة رواد الفضاء يا سيـدي.

لم تدع المجيب إلى زاوية الجدار كما خمنت، مما زاد من اطمئناني على توفيقي في الإجابـة، فقط أعرضت عن التحديق في، بل تكرمت وأذعت آخر فضائل الثوم وقد زايلك الحنق، ولبسك الدرس من جديـد.

الحيرة تشحن القسم في هذه المرة، القذيفة جانبية تتقوس نحو زاوية محايدة تضم فتاتين تتحدثان عن آخر أزياء الشاطيء، وأنواع الطيب، وقلائد شبه مرجانية دخلت السوق، ومع ذلك ظلت بقايا الصدى الارتجاجي تنبعث من خلوة الدفـء، حدقاتك تعاين لوحة التقاطع، تحاكم فسيفساء البلاط الأرضي، وجنسيات كتب وافدة رافضة للائتلاف، لكم تمنطق المظاهر يا أستاذي المطعون باندفاعات الخلف، وحبو الأمام، لملمت الدفتر، اجتثثت لوحة التقاطع لتعلقها على الحائط ديكورا فصار

أحدنا إذا وقف بالزاوية عقابا، أمر بالإدمان على النظر إليها، وبأمر منك ناولتُك الصورة اللغز لتضعها على واجهة لوحة التقاطع التي سنديم إليها النظر إذا ما كنا في حالة عقاب.

ترفض خطابا في تعاريف البدن، وعكس المدرسين الأخرين يضيق معجم تفاسيرك عن أسماء اللاعبين، وتقاويم كأس العالم لأن السير على العشب الاصطناعي ليس أماميا بالضرورة في نظرك.

اعتزل أسئلتك المحرجة برهة فقط، اسئلني عن النجوم؛ نجوم الغوص والخبب، نجوم الملاعب والغناء، إسئلني عن صيارفة الميداليات والإصابات الحلزونية، اسئلني عما أتقن يا أستاذ نص/ نص، ساعتها لن اتعقد من السؤال، ولن يهاجم الطبشور فهاهتي.

في قسمنا يصيّرني السؤال طفلا غريرا لا يحمله قرن ثور أسود أقعده المحراث.

أعرف أنك لن تتراجع وأن مظاريفك المنصصة لسوف تجبرك على قذفنا بعلب الطبشور، وبكل ما أتيح لك من دزينات أوراق، وكتب خزانة وممسحا ت السبورة، وربما بقميصك؛ قميصك المزركش الذي لن نحتفظ به لأنه غير مزدان برقم ظهري، أعرف وها أنت ذا قد شرعت.

أشتم رائحة حنق مسبق في تجاويف سهومك، وأنينا موجعا أتسمعه خلسة، وعلى صدارك المزركش شارة لباس منقرض، إليك أبرقُ بخاثر الدمع المصفى؛ دمع الإكبار يا أستاذ نص/ نص.

وبعد الدرس شك كبير مفتشي مادة المحادثة في حياد معجمك، فسألك جهرة بلغة رسمية:

ـ من تكون؟!

فقلت في غير حذر:

ـ أنا يا سيدي أنا لا أبكي.

سعيدة في 1986

محتوى المجموعـــة القصصية:

هذه المجمـــــوعـــــة ـ مدخل عن الحكي والقصّ ـ

المثول بين يدي النعمان السابع عشر

ضرائـــــر الصـــمـــــــــــــت

الرحيل عبر تعاريج الإثـــــــــــارة

العبور خارج دائرة الزمـــــــــــن

ينابيـــــع النـــــــــــــــــار

شعائر الدخول إلى أديرة الألـــــوان

ثلاثيات ابنـــــــــــة الخـــــــس

في معابد الصمت والغيـــــــــــلان

معجم الجدف عبر براكين الـــــتناهي

أبنية الإشهاد في أرخبيل الجـــرح.